عبد الرحمن منيف



النهايات

عبد الرحمن منيف
النهايات

الكتاب: النهايات/ رواية
تأليف: عبد الرحمن منيف
تصميم ولوحة الغلاف: مروان قصاب باشي

الطبعة الرابعة عشر: 2016
عدد الصفحات: 224 صفحة
الترقيم الدولي: 978-9938-886-33-7
رقم الناشر: 14/458-42

الناشران

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

المركز الرئيسي
المصيطبة - شارع ميشال أبي شهلا - متفرع من جسر سليم سلام - مفرق الجامعة اللبنانية الدولية LIU - بناية النجوم - مقابل أبراج بيروت
ص.ب.: 11/5460 الرمز البريدي 1107-2190
تلفاكس: 00961 1 707891 - 00961 1 707892
بيروت - لبنان
E-mail: mkpublishing@terra.net.lb
موقع الدار الألكتروني: www.airpbooks.com

التوزيع في الأردن
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان، ص. ب. 9157،
هاتف: 00962 6 5605432
هاتفاكس: 00962 6 5685501
E-mail : info@airpbooks.com

دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان
بيروت - بئر حسن - سنتر كرستال، المزيم - الطابق الأول
هاتف:009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

مصر
القاهرة - وسط البلد - 19 عبد السلام عارف (البستان سابقاً) - الدور 8 - شقة 82
هاتف: 0020223921332
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com

تونس
24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

عبد الرّحمن منيف

النهايات





إنه

القحط.

القحط.. مرة أخرى!

وفي مواسم القحط تتغير الحياة والأشياء، وحتى البشر يتغيّرون، وطباعهم تتغيّر، تتولد في النفوس أحزان تبدو غامضة اول الأمر، لكن لحظات الغضب، التي كثيراً ما تتكرر، تفجّرها بسرعة، تجعلها معادية، جموحاً، ويمكن ان تأخذ اشكالاً لا حصر لها. اما إذا مرَّت الغيوم عالية سريعة، فحينئذ ترتفع الوجوه إلى أعلى وقد امتلأت بنظرات الحقد والشتائم والتحدّي!

وحين يجيء القحط لا يترك بيتاً دون ان يدخله، ولا يترك انساناً إلاَّ ويُخلّف في قلبه او في جسده اثراً. وإذا كان المسنّون قد تعودوا، منذ فترة طويلة، لفرط ما مرَّ بهم من أيام قاسية، على سنوات المحل وعضّة الجوع، وكانت المخاوف تملأ قلوبهم حين يفكّرون فيها، فالكثيرون غيرهم لا يقدرون على مواجهتها بالتصميم نفسه، لأن الكميات القليلة من الحبوب التي توضع جانباً، بإصرار قوي أول الأمر، لتكون زاداً في أيام الجوع لا تلبث ان تتسرّب او تختفي، كما يتسرّب ماء النبع او كما يجفّ المجرى، وتبدأ بعد ذلك محاولات البحث المضني عن خبز اليوم، وخلال هذا البحث تتراكم الأحزان والمخاوف لتصبح شبحاً مرعباً تظهر آثاره في وجوه الصغار، وفي سهوم الرجال

وشتائمهم، وفي الدموع الصغيرة التي تتساقط من عيون النسوة دون أسباب واضحة!

إنّه القحط مرة اخرى. وها هو يسوق امامه أشياء لا حصر لها، ولا يعرف احد كيف تتجمع هذه الأشياء وكيف تأتي. فالفلاحون الذين كانوا يحملون سلال البيض وينزلون بها إلى اطراف المدينة، ويتجرأون بعض الأحيان ويصلون إلى وسط الأسواق المليئة بالبشر، والرعاة الذين كانوا يأخذون اجر سنة كاملة بضعة خراف، وكانوا يسوقونها في بداية فصل الربيع، ومعها الحملان الصغيرة، وكانوا يضعونها على صدورهم لأنها ولدت لتوّها، لكي يبيعوها في المدينة، ثم أولئك الباعة الماكرون الذين يحملون على دوابهم العنب والتين والتفاح، ويحملون موازينهم البدائية ومعها قطع الحجارة المصقولة التي تعوّدوا استعمالها اوزاناً، ويبالغون اول الأمر في الأسعار التي يطلبونها. ان كل هؤلاء إذا جاءوا في مواسم القحط يجيئون بهيئات مختلفة شديدة الغرابة: كانت ملابسهم ممزقة وغريبة الألوان، وعيونهم مليئة بالحزن والخوف، أمّا اصواتهم القوية الصاخبة فكانت تنزلق إلى الداخل، وبدلاً عنها تخرج من الصدور اصوات غير واضحة، حتى انهم كانوا يضطرون الى اعادة ما يقولون بضع مرات، بناء على الأسئلة الفظة التي يوجّهها لهم أصحاب الدكاكين في المدينة، والذين لم يكونوا ينظرون إلى وجوه هؤلاء الناس قدر ما ينظرون إلى الأيدي او إلى تلك الصرر الصغيرة المربوطة بإحكام في أطراف الملابس التي يضعونها على أجسادهم او على رؤوسهم. كان هؤلاء إذا جاءوا في مثل هذه السنين لا يبيعون البيض والفاكهة والزيتون والخراف، وانما يحاولون شراء أقصى

ما تسمح به نقودهم القليلة من الدقيق والسكر. حتى الرعاة الذين كانوا شديدي النزق ويبالغون في المقابل الذي يطالبون به ثمناً للخراف، وكانوا يفضّلون العودة مرة أخرى ومعهم دوابهم، دون شعور بالأسف لأنهم لم يبيعوا ولم يشتروا، حتى هؤلاء يتحولون في مثل هذه السنة إلى رجال متردّدين متوسّلين، لأنهم يريدون التخلص من الدواب الضعيفة المسنّة، اذ أصبحوا يخافون خوفاً حقيقياً ان تموت بين لحظة واخرى من الجوع والعطش.

اما الباعة الذين تعوّدوا المجيء في كل المواسم، حاملين من كل موسم ثماره، وبعض الأحيان للتجول والفرجة، فلم يعد أحد يراهم يحملون شيئاً في هذه المواسم، وكأنّهم مجموعة من القنافذ تكورت وهرّبت أشياءها إلى باطن الأرض!

لو اقتصر الأمر على هذه المظاهر لما اثار استغراباً، لأنَّ العلاقة بين المدينة وما يحيط بها هي من القوة والاستمرار بحيث لا يمكن لأحد ان يميّز بسرعة التغير المفاجيء الذي أخذ يتكون، لكن مع تلك المظاهر كانت أشياء أخرى كثيرة تحصل. فالتجار الذين تعوّدوا على تقديم القروض الصغيرة للفلاحين، واستيفائها اضعافاً مضاعفة في المواسم، اتخذوا موقفاً، بدا، أوّل الأمر، مليئاً بالشروط والتعنت، ثم ما لبثوا ان امتنعوا تماماً، وافتعلوا لذلك أسباباً وخصومات. اما الذين استمروا في تقديم بعض المساعدات، فقد رفضوا ان يكون سدادها في المواسم القادمة، وأصرّوا على شروط جديدة، أصرُّوا على ان تسجّل أقسام كبيرة من الأراضي التي يمتلكها الفلاحون بأسمائهم وأسماء ابنائهم، وفي محاولة لإثبات حسن النية قالوا الكلمات التي يقولها الدائنون دائماً: «الدنيا حياة وموت، والانسان لا يضمن نفسه في اليوم

الذي يعيش فيه، فكيف يضمن حياة اولاده الصغار بعد موته؟» كانوا لا يكتفون بذلك، كانوا يضيفون: «وكما قال الله عزّ رجل في كتابه الكريم: ﴿إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمًّى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل﴾.

والفلاحون الذين قابلوا اصرار هؤلاء الدائنين بإصرار أقوى، ورفضوا تسجيل الأراضي، أول الأمر، اضطر الكثير منهم إلى استخراج الحلى الذهبية والفضيَّة القديمة، والتي جمعت خلال فترات طويلة سابقة، وقدّموها عوضاً من الطحين والسكر وبعض أمتار من الخام. وفي وقت آخر وافق بعضهم على التنازل وقدّم الأراضي والبساتين التي طلبها الدائنون. ومع كل صفقة جديدة كانت أثمان الأرض في القرى تتراجع، وكان التجار يزدادون تصلباً ولا يوافقون إلاّ بشروطهم، وبعد ان تتم جميع الاجراءات!

ومع القحط تأتي أشياء أخرى أيضاً: تأتي الأمراض الغامضة وتعقبها الوفيات. كان الكبار يموتون من الحزن، والصغار تنتفخ بطونهم وتصيبهم الصفراء ثم يتساقطون. وإذا كان الناس قد تعوّدوا على الموت، ولم يعد يخيفهم كما كان الأمر في اوقات اخرى، رغم انه يتسبب كل الأوقات في تفجير آلاف الأحزان والأحقاد القديمة، فإنّ حالة أقرب إلى الانتظار اليائس كانت تحوم فوق كل بيت وتسبح في دم كل مخلوق. حتى الدواب في حواكيرالبيوت، او في اطراف البساتين، كانت تسيطر عليها حالة من العصبية واليأس.

وفي هذي السنين، ومع الجوع والموت، تأتي أفواج لا حصر لها من الطيور. ومثلما كانت الغيوم الخفيفة العالية تمرّ

مسرعة، كذلك كانت الطيور. فقد كانت أفواجها تعبر في كل الأوقات، حتى في الليل العميق، عالية صائتة، وكأنّها ذاهبة إلى الموت او إلى مجهول لا تعرف متى او أين سيكون.

كان الناس ينظرون إلى الطيور نظرة مليئة بالحزن والأسى. تمنوا لو كانت قريبة، او لو تتوقف قليلاً، لعلهم يظفرون بعددٍ منها يعوّضهم عن الجوع الذي يهدّهم، لكن الطيور تواصل طيرانها المتعب لعلّها تصل إلى مكان ما. والناس لا يتوقفون عن النظر والحسرة، ويتوقعون شيئاً ما، لكن هذا الشيء لا يحصل ابداً، لأن أسراب الكركي والوز البري، وعشرات الأسراب من الطيور الأخرى واصلت رحلتها المجهدة دون توقّف. أما أسراب القطا والكدري فقد بدأت تظهر بين فترة وأخرى. والفلاحون الذين تعلموا ان هذا النوع من الطيور لا يترك أماكنه الصحراوية، ويقترب من المناطق المزروعة، إلاّ إذا عضّه الجوع وأضناه العطش، ولم تعد واحات الصحراء او الخوابي المتناثرة في أماكن عديدة تحوي قطرة ماء، فقد لاحظوا ان هذه الطيور بدأت تتخلى عن الحذر والخوف، اول الأمر، مدفوعة بغريزة البقاء، فتندفع إلى أي مكان لعلها تلتقط بضع حبات او قطرات من الماء.

إنَّها المأساة نفسها تتكرّر مرة اخرى امام عيون الفلاحين، وهم قد تعوّدوا الصبر والانتظار، وتعوّدوا أكثر من ذلك ان يبدوا التشاؤم والتحفظ، وكانوا يردّدون إذا سئلوا عن المواسم والزراعة: «المواسم لا تعني الأمطار التي تأتي فقط، وانما أمور اخرى كثيرة». فإذا حصلت لجاجة في السؤال كانوا يختصرون كل شيء بالكلمات التالية: «المواسم تعني ما يقسمه الله وما يتركه الطير»، لأنهم في أعماقهم يخافون كل شيء، يخافون انحباس

المطر في الشهور التي يجب ان يسقط فيها. اما اذا جاء مبكراً ونما الزرع وارتفع شبراً او شبرين عن الأرض، فكانوا يخافون ان يأتي مطر غزير بعد ذلك الانقطاع، وعندها تغرق الأرض وتنمو الأعشاب الطفيلية ويفسد أو يقلّ الموسم. فإذا جاء المطر هيّناً متفرقاً، وفي الأوقات التي يجب ان يأتي فيها، فإنَّ الخوف يظل حتى الأيام الأخيرة من أيار، حين تشتد الحرارة فجأة وتحرق كل شيء، فتخيب الآمال وتتراجع الوعود التي اعطاها الرجال للنساء بأثواب جديدة، وللفتيان الذين تجاوزوا سن البلوغ وأصبحوا يطمحون إلى الزواج ان جاءت المواسم الجديدة بالخير. ان هذه الوعود تتراجع يوماً بعد آخر لأن «الشوبة» جاءت وقضت على كل شيء!

إنَّ احداً لا يحب ان يتذكر أيام القحط. أما اذا جاءت قاسية جارفة، واذا تكرر مجيئها سنة بعد أخرى، فالكثيرون يفضّلون الموت او القتل ثم الرحيل على هذا الانتظار القاسي، وآخرون يندفعون الى حالة من القسوة والانتقام لا يتصورها احد فيهم، بل ويستغربها هؤلاء الناس أنفسهم في غير هذه الأوقات، وفي غير هذه الظروف. واذا كان الانسان لا يستطيع ان ينتقم من الغيوم او ممن يرسلها، فلا بدَّ ان تكون هناك ضحايا من نوع آخر. فالأزواج الذين أبدوا من السماحة الشيء الكثير، ولم يتعودوا الشتيمة أو الضرب، كانوا مستعدين لأن يغيّروا هذه العادات بسهولة، ودون شعور بالذنب. كانوا لا يتردّدون في ان يضربوا ويصرخوا لأتفه الأسباب. والذين كانوا يبدون المرح ويظهرون التفاؤل، يتحولون فجأة الى رجال قساة بوجوههم وتصرفاتهم. وحتى اولئك الذين كانوا شديدي الايمان ويعتبرون

كل ما تأتي به السماء امتحاناً للانسان، لا يلبثون ان يصبحوا ضحايا واكثر الناس شتيمة وتجديفاً، حتى ليستغرب مَن عرفهم من قبل كيف كان هؤلاء الناس يخزنون في صدورهم هذا المقدار الهائل من الشتائم والأفكار الخاطئة المحرمة!

هكذا كان القسم الأكبر من الناس في تلك السنة القاسية الطويلة. واذا كان لكل قرية ولكل مدينة في هذا العالم ملامحها وطريقتها في الحياة، ولها اسماؤها ومقابرها، واذا كان لكل قرية ومدينة مخاتيرها ومجانينها. ولها نهرها او نبع الماء الذي تستقي منه، وفيها مواسم الأعراس بعد الحصاد، فقد كان للطيبة ايضاً حياتها وطريقتها في المعاش، وكان لها مقبرتها وأعراسها، وكان في الطيبة مجانينها ايضاً. لكن هؤلاء المجانين لا يظهرون دائماً ولا يتذكرهم الناس في كل الأوقات، وان كان لهم حضورهم وجنونهم الخاص، بحيث كانوا كباراً وأقوياء في أوقات معينة، وكانوا حمقى وشديدي الغرابة في أوقات أخرى.

وكان للطيبة دائماً أعراسها وأحزانها. كانت الأعراس، أغلب الأحيان، بعد الحصاد، وكانت الأحزان حين ينقطع المطر وتمحل الأرض. واذا كانت الأعراس تعني بعض الناس، ولبعض الوقت، فإنَّ الأحزان، وفي سنوات المحل، تعني جميع الناس، وتمتد فترة طويلة.

الطيبة مثل أي مكان في الدنيا، لها أشياؤها التي تفخر بها. قد لا تبدو هذه الأشياء خطيرة، او ذات أهمية بالنسبة لأماكن اخرى، لكنها بالنسبة للطيبة جزء من الملامح التي تميزها عن غيرها من الضيع والقرى. وهذه الأشياء تكوَّنت بفعل الزمن، وبفعل الطبيعة القاسية، كما لم يحصل في أماكن أخرى. فإذا كانت الأصوات العالية تميز سكان عدد كبير من القرى، حتى لتبدو اصوات الفلاحين عالية الجرس صلبة المخارج، وبعض الأحيان سريعة، وتتخللها مجموعة من الحِكَم والأمثال، كما هي العادة لدى الكثير من الفلاحين في انحاء عديدة من العالم، نظراً للعادة وللمسافات التي تفصل الناس عن بعضهم في الحقول، او حين يضطرون للمناداة على الحيوانات الضالة، او على تلك التي تذهب بمزاجها الغريب الى اماكن بعيدة او مجهولة، او ربما للبعد الذي يفصل البيوت عن بعضها، وما يحيط بها من الحواكير والبساتين الصغيرة التي تزرع فيها أنواع عديدة من الخضروات، ان هذه الأسباب، وغيرها كثير، خلقت طبيعة معينة، وجعلت الناس في الطيبة يتكلمون بطريقة خاصة، حتى ليظن مَن يسمع الحديث ولا يفهم طبيعة الناس او علاقاتهم، إنَّهم يتعاركون، او ان الخلاف بينهم وصل الى درجة من الحدة، لا بدَّ ان تعقبه أمور أخرى!

لو اقتصر الأمر في الطيبة على ذلك لما عنى شيئاً، خاصة بالنسبة للفلاحين او الذين يعرفون طبائعهم، لكن اذا ترافق مع ذلك النسق الخاص من الحديث الذي تعوّده أهل الطيبة، حيث يلجأون في أكثر الأحيان إلى الاستطراد والتذكر، ويسرفون في رواية القصص والتاريخ، لولا هذه الصفة لما ظهرت تلك الطبيعة الخاصة، ولما ظهرت تلك الخشية التي تميّز البشر في ذلك المكان، وما يحيط به من قرى وضياع، وقد تصل إلى المدينة، او بعض أطرافها ايضاً!

كان أهل الطيبة يعرفون كيف يديرون الحديث بتلك الطريقة العجيبة التي تجعل الأمور ذات اهمية شديدة، وهذه الميزة التي يتوارثها الأبناء عن الآباء، تجعلهم في نظر الكثيرين نوعاً خاصاً من الناس، وتجعلهم اكثر من ذلك قادرين على التأثير في الآخرين، وربما اقناعهم. ولا يمكن تفسير هذا الأمر على انه ضرب من الاحتيال او التملّق، كما لا يمكن ان يعتبر دليلاً على نزعة شريرة، ولكنها العادة بتكرارها الدائم، ثم تلك الليالي الطويلة، ليالي السمر والأحاديث السائبة، ثم التحديات، وما تجر اليه، وليالي الصيف او الشتاء، في البيادر او الى جانب النبع، وحول المواقد. لقد كانت تجري الأحاديث سريعة شجية وأقرب ما تكون الى الحلم. وكان الذين لا يحسنون المشاركة في أحاديث من هذا النوع، لا يلبثون ان يصبحوا بشراً مختلفين اذا وجدوا بين أناس آخرين، عندئذ يبدأون بإعادة ما سمعوا ويردّدون القصص التي رويت في الطيبة، ثم يضيفون اليها ما شاؤوا من الخيال، فتبدو وكأنّها أقرب إلى الذكاء والمهارة، فتثير من الإعجاب بمقدار ما تثير من الحسد.

وابن الطيبة، كبيراً كان أم صغيراً، يعرف كيف يسمع، وان كان الصغار، بشكل خاص، اكثر قدرة على الاصغاء، ولربما ردَّدوا فيما بينهم او في أنفسهم، ما سمعوا مرات كثيرة، حتى تترسخ في الذاكرة الأشياء فلا تضيع ولا تنسى، يضاف إليها أفكار وأمثال تَرِد عفو اللحظة وتمليها الظروف الطارئة التي يواجهونها. إنَّهم يلجأون إلى ذلك كله لكي تبدو أحاديثهم أكثر تشويقاً وأكثر أهمية!

•

والطيبة التي تعتمد على المطر والزراعة، وعلى ذلك الشريط الضيق من الأرض الذي ترويه العين، تحس في أعماقها خوفاً دائماً ان تأتي سنوات المحل، واذا كانت تستعد لذلك بحرص شديد، بتربية بقرة او اثنتين في كل بيت، وبتربية عدد من رؤوس الغنم، فإنَّها في سنوات المحل لا تستطيع ان تطعم أبناءها، ولذلك تسرف فيما تعطي للرعاة، وتحاول ان تتخلص من الدواب الباقية بذبحها او بيعها. ورغم ان عدد الرعاة في الطيبة أقل بكثير من القرى الأخرى، فإنَّ رعاتها من البراعة بحيث يحسدهم الكثيرون، فالراعي الذي يسرح بغنم عشرة بيوت، ويعرف كيف يتصرف في كل الفصول، وإلى أين يذهب، هذا الراعي، رغم غيابه الطويل في الفلاة، يظهر فجأة في سنوات المحل، ويمتلك دالّة على أصحاب الغنم السابقين، بحيث ينام ويقوم في أي بيت يريد دون شعور بالحرج او التردُّد. أمَّا المزايا الخفية التي يمتلكها الرعاة ولا تظهر للناس في المواسم الجيدة فلا تلبث ان تظهر في سنوات القحط، فهم يرابطون في مداخل القرية، ويتحوّل قسم منهم الى الصيد، لكن العادات التي اكتسبوها في الرعي لا تفارقهم. وأهل الطيبة الذين يمتازون بقدرة

خارقة على الحديث، يدركون ان الرعاة فقدوا هذه الميزة لكثرة ما عاشوا مع الحيوانات في البراري، لكنهم يعرفون كيف يستطيع هؤلاء ان يتجاوزوا الصمت بتلك الأغاني العجيبة التي يردّدونها في الفلاة، ويعرفون ايضاً كيف يستعملون تلك الآلات الخشبية، والتي لا يحسن استعمالها غيرهم، في مواسم الأعراس والحصاد، وربما في حالات الحزن ايضاً.

بهذه الطريقة، وبمعرفة الأماكن التي تعيش فيها الحيوانات، يصبح الرعاة في مواسم الجفاف أناساً لا غنى عنهم، لكنهم أغلب الأحيان لا يتقنون الصيد، وليست بينهم وبين الصيادين مودة. فهم لا يتخلون عن الغناء او عن تلك الآلات الشيطانية، كما يحب المسنون ان يسمّوها، ويحتالون كثيراً من اجل ابداء براعتهم في كل الأوقات، خاصة اذا تجمع الناس، وكانت هناك ضرورة من نوع ما!

الطيبة

بداية الصحراء، من ناحية الشرق البساتين والنبع والسوق بعد ذلك، وعند الأفق، تبدأ سلسلة الجبال. ومن ناحية الشمال والغرب تمتد سهول فسيحة، يتخلّلها بين مسافة واخرى بعض الهضاب. وهذه السهول تزرع بأنواع كثيرة من الحبوب. كانت تزرع بالحنطة والشعير والكرسنة والبرسيم وبعض اصناف البقول، وفي الأماكن القريبة من البلدة ترتفع مساكب الخضرة، قريباً من الأشجار المثمرة. اما من ناحية الجنوب فكانت الأرض تشحب تدريجياً، وتخالطها الحجارة الكلسية، وتبدأ تفقر ذراعاً بعد آخر حتى تتحول في بداية الأفق الى كثبان رملية، وبعد ذلك تبدأ الصحراء.

في المواسم الجيدة تخضرّ الطيبة وتعبق من كل جهاتها، وتمتلىء بالورود والنباتات العجيبة الألوان والأشكال في بداية الربيع. حتى الجهة الجنوبية التي تبدو اواخر الصيف متجهمة قاسية، لا يعرف الانسان ولا يستطيع ان يفسر كيف كانت قادرة على ان تقذف من جوفها كل هذه الكنوز، وكيف كانت تشد أهل الطيبة في بداية الربيع لكي يذهبوا افواجاً لالتقاط الثمار العجيبة المخبوءة في بطن الأرض، وما يخالط ذلك المهرجان من الذكريات عن ايام كانت فيهاالحياة اكثر روعة وخصباً. ان هذه البلدة تتصف بمزايا وصفات ليست متاحة لكثير من القرى

المجاورة. حتى الرعاة الأغراب الذين كانوا يحلمون بالوصول إلى المراعي الخصبة، لا يجرؤون على الاقتراب كثيراً من مراعي الطيبة، ولا يتجاوزون حداً معيناً، لأنهم يعرفون طباع اهل الطيبة وما يتّصفون به من حدة، وما قد يرتكبونه من حماقات ان اعتدى غريب على رزقهم او حياتهم.

هذه الأمور يعرفها ويتصف بها كل من عاش في الطيبة، ويعرفها ايضاً الذين عاشروا اهلها. وإذا كانت بعض القرى قادرة على ان تقذف من جوفها أبناء كثيرين، وترميهم في انحاء الأرض كلها، وتفقد بعد ذلك كل صلة بهم، فإنَّ الطيبة تختلف كثيراً، لأنها تولد في نفوس ابنائها حنيناً من نوع لا ينسى. وحتى الذين سافروا وابتعدوا كثيراً، كانوا يردّدون دون انقطاع اسم الطيبة، ويحنون إلى أيامها الماضية، ويتمنون لو عادوا اليها ذات يوم ليعيشوا ما تبقّى لهم من العمر. والذين لا يذهب بهم التفكير والخيال هذا المذهب، كانوا يفكّرون بالعودة اليها بين فترة وأخرى، وهناك يقضون اياماً جميلة، ويتذكّرون كل ما حصل في سنوات سابقة، ويمرون على كل البيوت، ويجلسون في مقهى السوق ومقهى النبع، ويعبّون الهواء بقوة وشهوة لعله يمنحهم قوة تمكّنهم من مواجهة الأيام المقبلة والاستمرار في الحياة الجديدة التي بدأوا يحيونها في أماكن أخرى!

وإذا كان الناس يفضلون، في بعض الأوقات، تذكّر الأيام الجميلة من الماضي، فإنَّ الأيام القاسية يصبح لها جمال من نوع خاص، حتى الصعوبات التي عاشوها تتحول في الذاكرة إلى بطولة غامضة، ولا يصدقون انهم احتملوا ذلك كله واستمروا بعد ذلك!

هذا الوفاء الذي يكنّه أهل الطيبة لبلدتهم لا يقتصر على شيء دون غيره، ولا يقتصر على المقيمين وحدهم، فالذين سافروا طلباً للرزق او الدراسة، وعاشوا في أماكن بعيدة، لا يكتفون بأن يرسلوا الطحين والسكر والرسائل وبعض الحاجات الأخرى الى البلدة، انهم يأتون لقضاء وقت غير قصير في الطيبة ايضاً. خاصة بعد ان يعجزوا عن اقناع اقربائهم بالسفر اليهم.

صحيح ان هذه الفترات التي يقضونها في الطيبة تسبّب لهم ألماً عميقاً، وتولد في النفوس احزاناً لا يعرفون كيف يكتمونها، خاصة حين يرون المياه وهي تشح وتكاد تنقطع من النبع، ويرون المجرى وقد جفّ، ثم يتملكهم شعور بالاختناق حين يسمعون اصوات الفؤوس وهي تهوي على الأشجار الجافة. فإذا أضيفت إلى ذلك اخبار الذين رحلوا وغيَّبتهم الأرض من الأصدقاء والأقرباء، الصغار والكبار، فإنَّ الحزن يتحوّل إلى حالة عصبية، ويأخذ الحديث مجرى جديداً. يبدأ القادمون، رغم صغر سنهم، يلومون الكبار، ويوجهون لهم كلمات التقريع:

ـ قلنا لكم مئات المرات: هذه الأرض لا تطعم حتى الجرذان، وانتم، هنا، تتشبثون بها، وكأنّها الجنة. اتركوها، ارحلوا إلى المدينة، هناك يمكن ان تجدوا حياة أفضل من هذه الحياة التي تعيشونها الف مرة!

وحين يصمت المقيمون، خاصة من المسنّين، ويتطلّعون بحزن إلى وجوه الذين يتكلمون، يتراءى لهم، للحظات، انهم لم يروا هذه الوجوه، ولم يعرفوها من قبل. ويتراءى لهم في لحظات أخرى ان الكلمات التي يسمعونها قالها اناس غيرهم، او ان المدينة أفسدتهم تماماً وجعلتهم يتكلمون مثل هذا الكلام. وتمتد

في أذهان المسنين صور لا نهاية لها، صور الطيبة في كل الفترات، حين كان ينبت العشب على الصخور وعلى اسطحة المنازل، وحين كانت الينابيع تتفجر من كل مكان، كانوا يتذكرون ذلك ويعبّون انفاساً عميقة وكأنّهم يتنفسون رائحة الخصوبة تتولد من كل الكائنات، ليس من البشر وحدهم، وانما من الحيوانات والجماد. يتذكرون كل شيء، ويتذكرون أكثر مذاق الأطعمة التي كانوا يأكلونها فيتحرّك اللعاب في افواههم!

ورغم ان الأبناء الذين هجروا الطيبة منذ وقت طويل، واستقرّوا في المدينة البعيدة، لا يعنون ما يقولونه تماماً، او لا يقصدون اليه، فإنّ تلك الصعوبات التي كثيراً ما تتكرر، تحملهم على ان يقولوا كل شيء، وتحملهم اكثر على ان يفكروا بهذه الطريقة. ومع ذلك، وبالرغم منه، فإنّ هؤلاء في مواطنهم الجديدة لا يكفّون عن ذكر الطيبة، والحديث عن مزايا موهومة لا تتمتع بها اية بلدة أخرى في المنطقة كلها. كان هؤلاء الأبناء لا يكتفون بالحديث، فإنّ تعلقهم بالطيبة يدفعهم في حالات كثيرة، وفي لحظات الشوق المذكّرة، لأن يفعلوا أشياء لا حصر لها ولا تخطر ببال: كانوا يقيمون أفراحهم في الطيبة، يجدّدون هذه الأفراح في الطيبة، يبعثون ابناءهم خلال فصول الصيف، لكي يعيشوا مثلما عاشوا حين كانوا صغاراً. وحين تأخذهم النشوة يدعون أصدقاءهم لقضاء بضعة أيام في هذه البقعة الرائعة: «في الطيبة السماء قريبة. شديدة الصفاء، والليالي هناك مليئة بنشوة لا تجدونها في أي مكان آخر من هذا العالم. اما الفواكه، اما الألبان، كالجبنة حين تكون طازجة، والزبدة حين تقطف، والدجاج والخراف الصغيرة وهي تشوى على نار الحطب. . . هذه

الأشياء واخرى غيرها في الطيبة، لا يمكن ان يكون لها مثيل. ثم هناك الصيد. الصيد وفير، فالحجل والأرانب، وحتى الحيوانات المتوحشة التي انقرضت في معظم البقاع، يمكن ان توجد في بعض الأودية العميقة المحيطة بالطيبة. والينابيع الغزيرة، ان الينابيع، اذا كانت أمطار تلك السنة وفيرة، تتفجّر من شقوق الأرض، وتتدفّق من تحت كل صخرة، ومياه هذه الينابيع باردة نقية، حتى ان الانسان لا يشبع حين يشرب من تلك المياه».

هكذا كانت تجري الأحاديث، اما اذا جاءت فاكهة الطيبة إلى المدينة، في سلال صغيرة، فكان هؤلاء الأبناء لا يملّون ابداً من تقليبها والنظر اليها، كانوا يفضلون ان يقدّموها إلى ضيوفهم، وان يتحدثوا عنها. اما اذا جرى الحديث عن أجبان المدينة وألبانها، فكثيراً ما كانت وجوه هؤلاء الأبناء تتغير، تمرق مثل ومضات خاطفة مظاهر القرف والذكرى في وقت واحد، ويتصورون للحظات انهم غير قادرين على ان يتذوّقوا شيئاً من الطعام غير ذاك الذي يأتي من الطيبة!

أشياء كثيرة تتولّد في النفوس، في نفوس المقيمين والراحلين، وهذه الأشياء من التداخل والتعقيد بحيث لا يستطيع أحد ان يفسرها.

صحيح ان الطيبة، مثل أماكن أخرى كثيرة، شحيحة الأرض، قليلة المياه، لكن فيها شيئاً يجذب الانسان ويشدّه اليها شداً محكماً، وإذا بدأ المسنّون الحديث، في السهرات الطويلة خلال الصيف، فإنّهم يتحدثون بلغة تروق كثيراً لهؤلاء الذين اتوا من المدينة. «قبل سنين كثيرة كانت الجبال المحيطة بالطيبة خضراء مثل البساتين، لكن الأتراك وهم يبنون سكة الحديد، ثم

وهم يسيّرون القطارات، لم يتركوا شجرة إلاّ وقطعوها. كانوا يريدون اخشاباً، ولا يهمّهم من أين. والأشجار التي لم يستطيعوا الوصول اليها، التي كانت في المعاصي وفي قمم الجبال، أحرقوها وهم يرحلون. اما الجبال التي ترونها عارية الآن من المدينة البعيدة وحتى الطيبة، فقد رأيناها خضراء حين كنا صغاراً. كان الفارس يضيع في الغابات الكثيفة التي تملأ السهول القريبة من الطيبة».

مثل هذه الأحاديث توقد في الأذهان صوراً لا نهاية لها، وأبناء الطيبة الذين سمعوها مرات كثيرة، كان يروق لهم ان يدفعوا المسنين لاستعادتها مرات ومرات، خاصة وهم يستقبلون ضيوفاً من المدينة. كانوا يريدون، بطريقة غامضة، ان يثبتوا ميزة خاصة لبلدتهم، وهذه الميزة، وان كانت لا تظهر بالوضوح الذي يشتهون في الوقت الحاضر، فإنَّها تكمن في مكان ما، ولا بدَّ ان تظهر. ويضيفون بمكر وغموض: «ليس هناك أفضل من ان يقضي الانسان ايامه الأخيرة في هذه البلدة المباركة» وبالمكر نفسه يدفعون المسنّين لأن يتحدّثوا عن الاعمار. وهذا الحديث الذي يروق لبعض الرجال، كان يزعج النساء ويدفعهن إلى المقاطعة، وبعض الأحيان إلى الاستفزاز، لكن لا يكاد الحديث يأخذ مجرى جدياً مرة أخرى، حتى يتحدث المسنّون عن نقاوة الهواء وعذوبة الماء، ويتحدثوا عن فوائد النوم المبكر واليقظة المبكرة، ثم نوع الأكل الذي يأكلونه، ويعزون الأمراض الجديدة والموت المبكر والمفاجىء، الذي يداهم المدينة، إلى مجموعة من الأسباب لم يألفوها ولم يسمعوا بها من قبل!

وأحاديث السهر تبدأ دون منطق وبلا نظام، وقد يتخللها

بعض الألعاب البريئة. وتلك الأمور تجري عفواً للحظة، وبلا تخطيط سابق. ومهما تشعّبت وتباعدت، ومثلما بدأت بالغابات والأشجار والينابيع، فلا بدَّ ان يجري الحديث ايضاً عن أيام القحط والصعوبات التي عاشتها الطيبة خلال تلك السنين. واذا كانت اللذة والأيام الرائعة المليئة بالخصب تحرّك المشاعر، فإنَّ المصاعب التي عاشها البشر وتغلّبوا عليها تحرّك مشاعر أخرى، مشاعر تزخر بالقوة وبعظمة من نوع خاص، حتى أبناء الطيبة الذين سمعوا هذه الأحاديث مرات كثيرة، يلذّ لهم ان يسمعوها من جديد، وفي كل مرة تبدو لهم جديدة مليئة بالبطولة والعبر: «كنا نأكل الأعشاب وجذور النباتات. كنا نأكل الجرابيع. حتى الجراد الذي كثيراً ما كان يأتي في سنوات المحل، او الذي يسبّب المحل، كنا نأكله. صحيح ان الحياة آنذاك كانت في منتهى القسوة والصعوبة، لكن الرجال في تلك الأيام كانوا رجالاً، كانوا أقوياء وقادرين على الاحتمال والصبر، وكانوا قادرين على ان يأكلوا الصخر. اما رجال هذه الأيام...» ويبتسم بعض المسنّين، ويتذكر الآخرون. وينظرون في وجوه بعض، وينظرون في وجوه أبنائهم، ثم في وجوه الضيوف!

هذا جزء مما تعنيه الطيبة في ذاكرة أبنائها. اما اذا جاء القحط فلا يبقى احد من أهل الطيبة، سواء كان يعيش فيها أو كان بعيداً عنها، إلاّ ويحس بمرض من نوع ما، ولا يلبث هذا المرض ان يتحول الى هاجس ثم الى كابوس. وبرغم ان الأبناء البعيدين لا يحتاجون إلى مَن يحرّضهم لكي يجيئوا او يبعثوا إلى البلدة بكل ما يستطيعون، فإنَّ هذه المساعدات لا تقوى على مواجهة الكرب والوقوف في وجه المصائب التي تتوالى بسرعة. فحين يبدأ النبع يتراخى والساقية تضمر، ثم تجف في نهايتها، يصبح المجرى مثل حية ماتت لتوها وبدأت تتخلى عن قشرتها. وفي هذه الأوقات تبدأ الأشجار بالذبول، ثم الجفاف. كانت أشجار المشمش أوّل الأشجار التي تموت، ثم تبدأ بعض ذلك الأشجار الأخرى. وتبور مواسم الجوز والزيتون، وتصبح الطيبة كالحة قبيحة ويغلب عليها لون الصفرة. ومن ناحية الجنوب، بدل الفقع والكماء والحميض والأنواع الكثيرة من الفطر، تبدأ عواصف الرمال تهبّ لتغطي كل شيء، وتخيّم على سماء الطيبة موجة من الغبار الممرض، وتتكاثر افواج الذباب والغربان على الفطائس وعلى بقايا البراز، وتتحوَّل الأصوات إلى دويّ مكتوم ينذر بشؤم ما. وفي هذه السنين لا بدَّ ان يموت عدد كبير من الناس. ولا بدَّ ان تحصل أشياء لم يقدرها الكثيرون!

لا تقتصر هذه الحالة على البشر، إذ تمتد إلى الحيوانات والطيور، فالحيوانات التي كانت تملأ منطقة شاسعة حول الطيبة وتسرح بلا مبالاة ورخاوة، وتقضي جزءاً من نهاراتها في سكينة أقرب الى الدعة من الشبع والامتلاء، لا تلبث ان تتحول إلى حيوانات نزقة شديدة الجفلة كثيرة الحركة، بحثاً عن شيء تأكله، ثم تتحوّل الى الشراسة والعناد، فتبدو هائجة ويمكن ان تتصرف بجموح يصل درجة الأذى، وأخيراً يضربها الهزال والمرض، وفي هذه الحالة يتراكض أصحابها بعصبية لكي يتخلصوا منها بالذبح او البيع.

أما الطيور التي تعبر سماوات كثيرة متجهة الى حيث تجد رزقها، فقد كانت تعبر سماء الطيبة بسرعة ودون ان تتوقف، وكأنّها بغريزة غامضة، ومنذ أزمان موغلة في القدم، وبتوارث فذ، تعرف كيف تتجاوز الطيبة وإلى أين تذهب، عدا تلك الطيور الصحراوية القاسية الملعونة، فقد كانت تترك أماكن كثيرة في هذا العالم وتتجه إلى الطيبة او قريباً منها، وتبدأ من هناك معركتها الأزلية مع البشر وبقايا الحب وقطرات الماء.

واذا كان لكل مدينة وبلدة وقرية جنونها ومجانينها، فإن جنون الطيبة أنواع كثيرة، لكن نوعاً خاصاً، أكثر من غيره، يظهر في سنوات الجفاف. وهذا النوع يطغى على غيره ويكاد يكون الوحيد، انه جنون الصيد. حتى الذين لا يمارسون هذه الهواية، وينظرون اليها نظرة تتراوح بين الزراية والرفض، ويفسرونها على انها أقرب الى الغفلة ورغبة الكسل، فإنّهم يكتشفون فجأة في أنفسهم حنيناً موجعاً لأن يصبحوا صيادين بشكل ما. قد تدفعهم الى ذلك الرغبة لتأمين الرزق، او لطرد الطيور الجارحة والانتقام منها، لعل بعض الحبوب تبقى وتنبت في السنة التالية، او لعل تلك الحبوب تتفتح عن بعض أوراق خضراء تأكلها الحيوانات الجائعة، وربما كان الدافع الى ذلك كله الرغبة في الانتقام من عدوٍ ما!



كان مجانين الطيبة في هذه السنة أكثر عدداً وأكثر صخباً من أية سنة سابقة. حتى في سنة المجاعة الكبيرة، التي أعقبت الحرب، لم يظهر مثل هذا العدد، ولم تظهر مثل هذه الحالة. اذ ما كاد يبدأ موسم الصيد حتى أخرج هؤلاء المجانين البنادق القديمة من مخابئها، مسحوا عنها الغبار، نظّفوها جيداً، وبدأوا يضعون الخطط ويتحدثون. لم يكتفوا بذلك، ابتدعوا وسائل صيد جديدة، وتفنّنوا في تحضير الخرطوش واختراعه. ولكي ينتقم اولئك المجانين، المصابون بهذا المرض منذ وقت طويل، من أيام ماضية، حين كانوا سخرية أهل الطيبة، لجأوا الى المكر والدهاء، فلم يتركوا احداً إلاّ وأغروه بالصيد. وأكّدوا ان هذه الطريقة وحدها يمكن ان تنقذ البلدة، ولكي ينجحوا في لعبتهم حتى النهاية وزّعوا على الكثيرين، مجاناً، عدداً من الخرطوش الذي يصنعونه بأيديهم وبوسائلهم البدائية، واتخذوهم مساعدين لهم في تحضير كل ما من شأنه ان يسهل مهمتهم، وقالوا بصوت واضح: «ليس أسهل من الصيد، ولكي يصبح الانسان صيّاداً يجب أن يمارس الصيد، تماماً مثلما يتعلم السباحة». والذين استمعوا اليهم بانتباه لم يصدقوا آذانهم، أول الأمر، لكن الاغراء الخفي الماكر جرّ الكثيرين، فيوماً بعد يوم كان ينضمّ الى مجانين البلدة مجانين آخرون، وكان الوافدون الجدد يمتلئون زهواً حين

تصيب طلقاتهم طيراً من الطيور، وبين عشية واخرى يتحولون الى مهووسين لا يعرفون الراحة والهدوء إلأ بالقتل والركض وراء الطيور من مكان إلى آخر.

هكذا بدأت اللعبة أول الأمر، وهي وان بدأت صغيرة خفية، فقد أثارت حنق عدد كبير من المسنين، والذين ينظرون إلى الصيد على انه وسيلة للرزق والحياة.

لقد كانت اللعبة أقرب الى العبث ولا تناسب الرجال الذين يقدّرون مسؤولياتهم، ويجب ان ينشغلوا بالهموم الكبيرة التي أخذت تزداد يوماً بعد آخر. لكن اللعبة تكبر وتتسع كل يوم. والذين أبدوا بعض التردّد ما لبثوا ان تراجعوا، خاصة حين أخذوا يشاهدون طيور القطا محمولة بالعشرات. اما حين يقلبونها ليتأكدوا من كمية اللحم فيها فكانوا يقولون بصوت عال: ـ ضعيفة.. نعم انها أضعف من أية سنة سابقة!

ولكي يتأكدوا ان ما يقولونه هو الحقيقة كانوا يقلبونها مرة أخرى، ويشدّون على صدورها، وبهذه الحركات الاضافية، وبضغط الأصابع على اللحم الطري، كانت تتغير مواقفهم ويحسّون برغبة مغرية. أمّا حين يبدأون بعدّها فكان التردّد يتراجع مع كل رقم جديد، لكن دون اعلان، ودون كلمات، ويكون كل واحد منهم قد اتخذ قراراً داخلياً ان يبدأ اللعبة!

والمسنّون الذين صرخوا بغضب، واعتبروا هذا الهوس نوعاً من الفتنة او الجنون، ولا يليق بالرجال في مثل هذه المحنة القاسية، ما لبثوا ان تراجعوا. صحيح انهم لم يفعلوا ذلك سريعاً وبشكل علني، لكن اعتراضاتهم بدأت تقل وتتراجع يوماً بعد آخر، وبدأت كلماتهم تأخذ طابعاً ليّناً أقرب إلى النصح:

ـ اذهبوا إلى المدينة واعملوا هناك، اما ان تنتشروا في هذه الأرض الغبراء، وان تتشردوا بين الجبال والصحراء، من اجل طيور جائعة، وليس فيها سوى العصب والريش، فإنَّ ذلك مضيعة للوقت.

وحين يهزّ الشباب رؤوسهم اشارة الى انهم سمعوا ما قاله المسنّون، دون ان تعني الاشارة موافقة او رفضاً، كان يضيف بعض المسنّين:

ـ إذا جاءت المصائب فإنّها تجيء مرة واحدة!

وتستمرّ اللعبة تكبر، ويستمر الشباب في ترتيب لوازم الصيد لليوم التالي: يهيئون الخرطوش، ينظّفون البنادق، يصنعون قطعاً من القماش الملون المليء بالثقوب لاستدراج الطيور والاحتيال عليها. وحين يرى المسنّون ذلك، ويجدون لدى الشباب اصراراً لا يتزعزع، كانت لهجة الكثيرين تصبح اكثر حنواً وخوفاً:

ـ هذا البارود يأكل الأخضر واليابس، يجب ان تحذروا!

ويرقب المسنّون بعناية الطريقة التي يُصنع بها الخرطوش ليتأكّدوا ان الشباب يفعلون ذلك دون ما خطأ. فإذا تأكّدوا كانت كلمة وحيدة تتكرر بلا انقطاع:

ـ كل البلاء من المجنون الكبير عساف!

عساف الرجل الذي يعرفه أهل الطيبة كلهم، نساءً ورجالاً، كباراً وصغاراً، هو نفسه عساف الذي يبدو غامضاً ومجهولاً بالنسبة للجميع، وقلما يراه او يجلس معه احد.

بين الأربعين والخمسين، طويل مع انحناءة صغيرة، ضامر لكنه قوي البنية، أعزب لأسباب يختلف فيها الناس كثيراً. قيل انه كان يريد ابنة عمه، لكن اباها رفض «لأن عساف بلا عمل ولا يستطيع ان يعيل نفسه فكيف اذا تزوَّج وجاءه أولاد»؟ وقيل ان الفتاة رفضت وهدَّدت ان تحرق نفسها ان هم اجبروها على الزواج به، وتعللت بغرابة الطبع والقسوة. وحين سئلت امها، في وقت متأخر، ابدت استنكارها الشديد، وقالت ان حذاء ابنتها يعادل رأس هذا المتشرد الذي يعيش في البراري والمغاور، ووصفته بالمجنون ايضاً. ولو حاول أي انسان التحري عن اسباب اخرى لوجد الكثير. ان هذه القضية التي شغلت الطيبة وقتاً ما انتهت بصمت وهدوء، ولم تعد تشغل احداً. اما ما خلفته من نتائج فاسم جديد لعساف: ابو ليلى. وبعض الذين استمروا يبدون اهتماماً بهذا الأمر، تحوَّل لديهم هذا الاهتمام مع الأيام الى نوع من الطرافة والسخرية، خاصة وان عساف يرفض الاجابة عن أي سؤال له علاقة بهذا الموضوع، وهكذا تعوَّد الناس ان يكون عساف بهذا الشكل، ولو ظهر بشكل آخر لبدا غريباً!

منذ كان صغيراً شغلته قضية الصيد، وهذه القضية كبرت عاماً بعد عام ما دام عساف يكبر، واذا كانت بسيطة وبدائية حين كان صغيراً، ويفعل ما يفعله الصبيان في مثل عمره، فقد كان اكثرهم ولعاً وتعلقاً. اما حين مات أبوه فقد استغرق في هذه الهواية الخطرة. لم يعد يكتفي بما يفعله الصغار، كان يقلد الكبار ويذهب حيث يذهبون، وكان يحاول باستمرار ابتداع وسائل جديدة للصيد. ونتيجة لهذا الوضع فقد اكتسب عادات خاصة أقرب الى الغرابة، كان يقضي وقته في البساتين، بدأ التدخين في سنّ مبكرة، أصبح كثير التفكير والتأمل في كل ما حوله من طبيعة وبشر وحيوانات، وكان أغلب الأحيان بعيداً عن الناس، اما حين يكون بينهم فالصمت سلاحه تجاه الآخرين.

ظلَّ يتطور بهذا الشكل، وحين ماتت أُمه، تغيّرت طباعه أكثر من قبل، فبدل ان يعود الى البلدة ويصبح مثل الآخرين، يزرع ويحصد ويستقر، فقد اشترى بندقية صيد من النوع القديم، وبدا الأمر غريباً ان يكون فتى في الثالثة عشرة يقلد الكبار ويلاحق الطيور التي لا يفكّر بها مَن كان في عمره، وان يقضي وقته كله خارج البلدة وحيداً ينتقل من واد الى آخر ومن جبل إلى آخر.

ان أجزاء كبيرة من حياة عساف بعد ذلك مجهولة، وحتى لو اراد هو نفسه ان يستعيد حياته، فلا يتذكر إلاّ الشيء القليل، لا يتذكر احداثاً كبيرة او هامة، سوى تلك التي لها علاقة بالصيد: أين ضرب الذئب وكيف ضربه؟ كم مرة اضطر للنوم في المغاور خوفاً من الموت برداً، بعد ان سقط الثلج وتراكم بكثافة ليسد الطرق ويجعل الحركة صعبة. ويتذكر عدد المرات التي

رفض ان يضرب اناث الحجل لأنها كانت تسوق امامها أفراخها الصغيرة. ان هذه الذكريات وما يشبهها لا تعني احداً غيره، وحتى لو اراد ان يتحدث فإنَّ حديثه يبدو غامضاً متداخلاً، ولا يستطيع ان يتابعه!

هذا النوع من البشر يتحول يوماً بعد آخر الى حالة من الغرابة والانطواء، ويصبح بطبيعته أميل الى الابتعاد عن الناس او الاهتمام بهم، كما ان له عالمه الخاص وهمومه التي لا يشاركه فيها الآخرون. اما طريقته في التعبير فتكون قاسية فظة، وقد تؤذي اذا لم تفهم هذه الطبيعة ويحسن التعامل معها.

والطيبة، التي عرفت أنماطاً كثيرة من البشر، تعوّدت على عساف كما تعودت على هذه الأنماط، ولم يعد مظهره الرث او صمته، وحتى الشتائم التي يطلقها بعض الأحيان، إذا حاصره أحد وانهالت عليه الأسئلة والاستفزازات، لم تعد هذه الأمور تثير حرجاً أو خصومات، اذ ما تكاد تبدأ حتى تأخذ شكلاً ساخراً أوّل الأمر ثم ضاحكاً في النهاية. وعساف الذي تعوَّد على هذه الحياة كان يجد صعوبة كبيرة في ان يغيرها. وفي المرات القليلة التي كان يضطر الى استبدال بعض من ملابسه يفعل أشياء لا تخطر على بال ولا يفعلها أي عاقل، فحين يبلى حذاؤه ويكون مضطراً لشراء حذاء جديد، لا يستطيع ان يستعمل الحذاء الذي يشتريه مباشرة: فكان يدخل عليه تعديلات كبيرة، تفسده في بعض الحالات، كان يلجأ إلى قصّ الجلد عند الأصبعين الصغيرين، وكان يضرب الحذاء ضربات قوية بعد ان يضعه في الماء. ولو سأله أحد عن ذلك لما كان لديه شيء يقوله، حتى هو لا يعرف لماذا يفعل ما يفعله. ولو اقتصر الأمر على الأحذية لهان وفُهم،

لكنه كان يفعل بملابسه شيئاً مماثلاً، كان يمزق السراويل في مواضع كثيرة، وفي تلك المواضع يخيط عدداً من الرقع الملونة وبعض الأحيان قطعاً من الجلد الطري. ان هذا شأن من شؤونه، ولا يستطيع احد ان يناقشه او يقنعه بغير ذلك. اما في ايام الأعياد، وحين يكون مضطراً ان يمر على معظم بيوت الطيبة، كما هي العادة، فكان لا يغيّر شيئاً في مظهره، كما تعوّد الناس ان يفعلوا، وقد يبالغ فيلبس اسوأ ما في غرفته الصغيرة، وهي الغرفة الوحيدة التي بقيت له بعد ان باع البستان أوّل الأمر، ثم باع بعد ذلك جزءاً من الدار، ولم يبق إلاّ على الغرفة الداخلية وحاكورة صغيرة.

هكذا تعوَّد اهل الطيبة على عساف، ونتيجة الألفة والاستمرار، لم يعد يثير تساؤلاً او استنكاراً. الشيء الوحيد الذي اثار اهتمام الناس ذات يوم، ولم يستمر هذا الشيء طويلاً، ان عساف اقتنى كلباً. ولقد بالغ كثيراً، حين سئل عن الكلب، في الحديث عن اهميته وأصله، وبالغ اكثر من ذلك في تحديد المبلغ الذي دفعه ثمناً له، وقد قيل مرات كثيرة ان عساف وجد الكلب ضائعاً، ربما من صياد غريب، فجاء به. وتجرأ بعض الناس في الطيبة وقال ان عساف سرقه! وعساف الذي سمع بعض ما يقوله الناس، كان يبتسم دون اهتمام، ويطبطب على ظهر الكلب بمودة، ويقول له: «اسمع ما يقول الهبل» وخلال هذه الفترة قضى عساف وقتاً أطول مما تعوَّد في البيت، وقضى بعد ذلك اسبوعين في الطيبة، لم يخرج خلالهما الى الصيد. وقد فسّر الأمر بالخوف، فالذين قالوا نه سرق الكلب، كانوا متأكدين من ذلك أكثر من قبل، لأن الأمر لو كان له سبب آخر لما خشي

عساف الخروج الى الصيد واصطحاب كلبه معه. أمّا الذين قالوا ان عساف وجده فقد كانوا على يقين ان الكلب سيعود الى أصحابه حالما يخرج من الدار ويصبح حراً، ولن يستطيع عساف ان يفعل شيئاً لو هرب الكلب وعاد الى أصحابه! اما الحقيقة فهي ان عساف لا يثق إلاَّ بما يفعله، ولا يتأكد إلاَّ اذا فعل الشيء بنفسه، ولذلك، وبعد ان رافق صيادين جاءوا الى الطيبة من مكان بعيد، ونتيجة للجهد الذي بذله معهم، ولأنه دلّهم على أماكن مناسبة للحجل، ثم تنازل لهم عن الطيور الخمسة التي اصطادها، أعطوه ذلك الكلب. لكن عساف لم يكن واثقاً من الكلب ثقة كافية، وقد أجهد نفسه لفترة طويلة لكي يدرّبه، فأثار بذلك سخرية اهل الطيبة. ومن جملة ما فعله عساف في هذه الفترة، اضافة الى المدة التي قضاها في البيت، انه ربط الكلب بحبل وبدأ يتجول به في الأماكن القريبة، واشترى له كمية من «الحامض حلو»، وحاول ان يعلمه عادات جديدة. والناس الذين رأوه يجرّ الكلب بالحبل ضحكوا طويلاً وابدوا سخرية مريرة:

ـ انظروا.. المجنون يربط كلب الصيد!

ـ لا أحد يدري مَن يصيد لمَن او مَن يساعد مَن!

لم يكتفوا بذلك وانما انضموا إلى الذين اتهموه بسرقة الكلب، ولو لم يكن الأمر كذلك لما فعل ما يفعله الآن!

ـ سبحان الخالق، ربما ولدتهما أُم واحدة، انظروا انه يشبهه تماماً.

ان ذلك كله من تاريخ الطيبة الأقرب إلى النسيان. فبعد ان أصبح عساف والكلب متلازمين، بدت صورتا الاثنين واحدة،

وتجرأ بعض الخبثاء، وقالوا ان شبهاً قوياً بين عساف والكلب، من حيث ضخامة الأنف وكبر الأذنين، ومن الصوت المكتوم الأقرب الى الغرغرة، طبيعي لم يستطع احد ان يقول هذا الكلام مباشرة لعساف، او اثناء وجوده، لكن احداً لا يسمّي الكلب إلاّ عسّاف، ولا أحد ينظر اليه إلاّ تلك النظرة!

ان الطيبة مثل كل القرى والبلدان الأخرى التي تشبهها، من حيث القسوة والسخرية ورغبة التندر واختلاق بعض الأكاذيب، وفي اغتياب الناس ايضاً، خاصة اذا كان هؤلاء مثل عساف. اذ ما يكاد يظهر في غبش الصباح الأول ويراه احد حتى يمتلىء وجه مَن يراه بابتسامة أقرب إلى السخرية، ويسأله تلك الأسئلة عن الصيد والكلب، وعن العجائب التي يراها في البرية! أمّا إذا طالت السهرات وامتلأت بالأحاديث فلا بدَّ ان يتبرع أحد ويقول شيئاً ساخراً:

ـ رأيت اليوم عساف يحمل الكلب على ظهره!

ويقول آخر والضحكة تملأ حلقه:

ـ رأيت اليوم عساف الحقيقي يحمل البندقية ويصيد.. ولا بدَّ ان يكون هو الصياد وليس هذا الكذوب.

ويقول ثالث:

ـ اطلق عساف النار على ديك حجل فلم يصبه، وأصاب الكلب، ولذلك فهو كلب أعور!

ان شيئاً ما حصل في وقت من الأوقات، لكن طريقة الطيبة في نقل الأخبار تختلف عمّا يجاورها، اذ لا بدَّ ان يكون في أية قصة يرويها أحد من أهل الطيبة مقدار من الصحة. فعين الكلب

المطفأة كانت هكذا منذ اليوم الأول الذي وصل الكلب إلى الطيبة. واذا كان عساف قبله هكذا ولم يسأل كيف عورت عينه او متى، فقد قال ذات يوم ان ذلك ربما وقع في الصيد، ولم يضف شيئاً. اما الطيبة فروت ذلك على انه وقع لعساف، ومع ذلك الكلب. واذا كان عساف اضطر الى حمل الكلب ذات مرة، فقد فعل ذلك بعد معركة مريرة بين كلبه وذئب، وكاد عساف ذاته يموت خلال تلك المعركة. اما الكلب فنُهش في أكثر من موضع، ولو تُرك لمات! اما حديث البندقية التي يزعم بعض أهل الطيبة انه رأى الكلب يحملها ويصيد بها فلا أساس له البتة، وانما هو وهم وحسد. لأنَّ الكلب، وبعد تدريب طويل، كان يساعد في حمل قسم من الصيد، كأن يحمل ديكاً من الحجل بين أسنانه!

والطيبة التي تحب الفكاهة والسخرية، مثل غيرها من القرى، في أوقات الراحة والفرح، تتغير كثيراً أيام الأحزان، وتتغير أكثر ايام تشح الأمطار وتأتي سنوات المحل. تصبح بلدة أقرب إلى السواد، تغطيها الظلمة عند الغروب، وتمتدّ فوقها موجة من الصمت والأحزان، وتبدو لياليها طويلة ساكنة، عدا أصوات الكلاب المشرّدة الجائعة، وطلقات تائهة في بعض الأحيان. وفوق الطيبة، في مثل هذه الأيام، تنتشر رائحة ثقيلة منذرة، لكن لا يميز تلك الرائحة إلاَّ من عرفها او تنشّقها ذات يوم!

وفي هذه الأيام تتغيّر أشياء كثيرة!

هذه السنة ليست مثل اية سنة سابقة، هكذا بدأت منذ الأيام الأولى للشتاء. فالأمطار المبكرة التي تنتظرها جميع القرى الواقعة على أطراف البادية، والتي تبشر بموسم خصب، وتحمل معها اعداداً لا حصر لها من النباتات البرية، ويُقال ان تلك النباتات تنزل من السماء مع المطر ـ هذه السنة جاءت برياح باردة شديدة القسوة ولم تجيء بالأمطار. وأهل الطيبة الذين تعوّدوا على استقبال مثل هذه الشتاءات الباردة لم يستغربوا ولم يتبرموا، لأنهم لا زالوا في أوّل الشتاء، ولأنَّ ايام الخير امامهم لا تزال كثيرة وطويلة، لكن المسنّين الذين خبروا دورات الطبيعة، وعرفوا بشائر الخير من نذر القحط، دخل الخوف قلوبهم: كان خوفاً أقرب إلى الحزن، وارتفعت في ذاكرتهم أيام مثل هذه الأيام، ثم جاءت بعدها المصائب والأمراض واخيراً جاء الموت. ومع ذلك كتموا مشاعرهم في صدورهم وصمتوا. أمّا الرجال الآخرون، الأصغر سناً والأقل دراية بالمواسم والطبيعة، فقد نظروا إلى السماء بتساؤل، وداخلهم الشك فيما يعرفون من أمور. وحين سألهم الصغار ان كان الكماء والفطر والحميض والخبيز وعشرات النباتات البرية الأخرى، ستأتي هذه السنة، نظروا إلى الصغار بارتياب، وكأنَّ مثل هذه الأسئلة تحمل لهم امتحاناً عسيراً، واكتفوا باجابات غامضة، أقرب إلى التحدي:

ـ الشتاء في أوله، وأنتم مرضى بشيء لم نعرفه عندما كنا في اعماركم، انتم مرضى بالأسئلة التي لا جواب لها!

والصغار الذين لم يكتفوا ولم يقتنعوا باجابات الآباء، ذهبوا إلى الأمهات وامطروهن بأسئلة لا تنتهي: «متى نذهب إلى التشول[1] للفقع؟»، «متى نذهب إلى الكماء؟»، «هل سنجد كميات كبيرة من الفطر هذه السنة كما وجدناها في السنة الماضية؟» وإذا كان الأبناء، في مثل هذه السن، لا يجرؤون على مناقشة الآباء او الالحاف بسؤالهم، فإنَّهم على الأمهات اكثر جرأة وأكثر الحاحاً، والأمهات بطريقة غامضة، وتتميّز بمكر خفي، يحاولن بكل الوسائل ان يصرفن الأبناء عن مثل هذه الأسئلة، لكن الوعود تبقى قائمة، والرؤوس تشتعل بعشرات الرغبات والأحلام. اما إذا نظرت النسوة في وجوه الرجال، خاصة المسنين، فكنَّ يقرأن في تلك الوجوه مصاعب الأيام القادمة وآلامها التي لا يمكن ان تُنسى!

هكذا بدأ الشتاء في هذه السنة، واذا كان كل يوم يأتي ولا يأتي المطر، يحمل معه مزيداً من العصبية للذين يذهبون إلى الحقول، وينظرون اليها بحزن، وقد تحجّرت التربة من البرودة، وعبثت بها العصافير الموسمية التي تأتي بأعداد كبيرة وتخلق في الجو دوياً لا ينقطع منذ الفجر وحتى الغروب، ولا ترهب هذه العصافير الفزاعات السوداء التي تُنصب في أماكن عديدة من الحقول. ان كل يوم يمر يحمل نذيراً جديداً، ويضيف خوفاً جديداً في قلوب الرجال، وهماً ثقيلاً أقرب إلى الحزن في قلوب

---

(١) البادية القريبة.

النساء. أما حين يعصف الجو وتعربد الرياح الباردة فإنَّ انتظاراً ممضاً يشبه حد الموسى يسيطر على البلدة: «هل ستحمل هذه الرياح المطر؟ هل سينبت الزرع بعد هذا الجفاف الطويل؟ واذا جاءت قطرة او قطرتان، فمَن يضمن المطر في اذار ونيسان؟» وتهوّم في الرؤوس أسئلة من نوع آخر: «ما دام الموسم قد انتهى، فقد كان على الله أن يبعث لنا بالأمطار الموسمية المبكرة، لو جاءت تلك الأمطار لأخرجت لنا البرية شيئاً نأكله ويعوضنا عن التعب والموت، لكن الموسم انتهى، وآذار لم تبقَ فيه إلاّ أيام وينقضي دون قطرة مطر، ولا أحد يعرف كيف ستكون الحياة بعد ذلك!».

وفي نهاية آذار تماماً هطل المطر. كان مطراً غزيراً استمر يومين متواليين. وخلال هذين اليومين تغيّرت وجوه الناس وتصرفاتهم، حتى الذين لا علاقة لهم بالزراعة مباشرة بدوا اكثر فرحاً، وبعض الأحيان أقرب إلى الخفة في التعبير عن ذلك الفرح، وتجرأ الكثيرون وقالوا: «موسم هذه السنة، خاصة بالنسبة للصيفي، سيكون أحسن من جميع المواسم التي شهدناها من قبل». لكن الذين يزرعون، والذين عرفوا دورات الطبيعة، لم يتكلموا ولم يتفاءلوا، كانوا ينتظرون شيئاً آخر. وفي هذه الأيام، وبعد ان أشرقت الشمس وملأت الكون في اليوم الثالث، ما لبث الذين امتنعوا عن الزرع في بداية الموسم، ان حرثوا الأرض على عجل، واستعانوا بكل الوسائل، لكي يضمنوا لأنفسهم زرعاً وفيراً مثل غيرهم!

لكن مطر آذار بغزارته وجنونه لا يمكن ان يقنع المسنّين ولا يرضيهم، ان لهؤلاء مزاجاً يختلف عن غيرهم، وهذا المزاج ربما

كونته الطبيعة والأيام الطويلة والمخاوف، وربما يتولّد لأسباب غامضة مجهولة! وقد تكون له علاقة بالأرض ذاتها، اذ يشعر أي واحد من هؤلاء ان كل يوم جديد يقرّبه أكثر فأكثر من الأرض. وما دام الأمر هكذا، فإنَّ امنية خفية تدفعه لأن يتمنى ارضاً من نوع ما يمكن ان تستقبل لحمه وعظامه، ويحس بنفس الخفاء ان هذا الجفاف الذي تسرّب عميقاً إلى الأرض، ثم تلك الرخاوة اللزجة التي جاء بها مطر آذار، لا يناسبان، ويتمنى لو انه لا يغادر الحياة في مثل السنة القاسية. وحتى لو بلغ اليأس مبلغاً كبيراً في قلوب المسنّين وأصابهم الغمّ والسأم من هذه الدورة العاتية للطبيعة، فقد كان كل واحد منهم يريد ان يموت موتاً كريماً لائقاً، ان يموت في الوقت الذي انهى كل ما يجب ان يفعله في هذه الحياة، وان يغادر الدنيا بهدوء وسلام، دون جلبة، ولكن باحترام يناسب عمره. اما ان يموت مثلما يموت الصغار، او مثلما تموت الدواب، بطريقة مفاجئة، ودون انذار من أي نوع، ان موتاً مثل هذا يدفعه إلى شعور عميق باليأس!

ومثلما توقّع المسنّون حصلت الأمور بعد ذلك: فالزرع الذي اهتزَّ في أعماق التربة من الأمطار الغزيرة التي سقطت في نهاية آذار، ما لبث ان شقَّ الأرض وبدأ ينمو. كانت الزروع بنموّها الزاهي، رغم المسافات المتباعدة فيما بينها، نتيجة لهجوم العصافير وتقليب المحاريث، كانت بنموها قوية واثقة، وما كادت شمس نيسان تحتضنها بالدفء حتى انتعشت وتحرّكت أكثر من قبل. وإذا كان الفلاحون، بتفاؤل موهوم، يردّدون بإصرار ان ما يحتاجون اليه مطرة او مطرتين في نيسان، الأولى في النصف الأول، والثانية في نهايته، ثم مطرة أخيرة في منتصف أيار، رغم

هذا التفاؤل الذي يحاولون من خلاله ان يقنعوا أنفسهم قبل ان يقنعوا غيرهم، فقد كانت مثل هذه الأمنيات مستحيلة، لأن السنة من بدايتها كانت تنذر بالقحط. قال هذا المسنّون في داخلهم، وقال هذا عساف بصوت عال وأمام جميع الناس. ولو ان احداً سأل عساف عن السبب الذي يدعوه لأن يقول مثل هذا القول، فلم يكن يملك جواباً واضحاً او مقنعاً، كان يكتفي بأن يقول:

ـ انتظروا، هذا ما أقوله، وسوف ترون كل شيء بعيونكم!

والناس حين يسمعون هذا الكلام من عساف تتملكهم العصبية ويصبحون سريعي الغضب، وأقرب إلى التحدّي، لكن في قرارة أنفسهم يحسون ان ما يقوله هذا المجنون لا يشبه الكلام الذي يقوله غيره. إن فيه شيئاً من الحقيقة، حقيقة خفية غامضة، وربما مرتبطة بأمر لا يعرفونه.

ومثلما أحسَّ المسنّون، ثم توقعوا، بدأت تتسرب من أفواههم كلمات التحذير، ثم كلمات الخوف، وفي وقت لاحق قالوا بوضوح شديد:

ـ ستكون هذه السنة من أصعب السنين التي مرّت على الطيبة!

وبعد لحظات من التفكير والتذكر الحزين يضيف أحد المسنّين:

ـ لا أتذكر ان سنة مثل هذه مرّت على الطيبة من قبل.

ومثلما توقع المسنّون، ومثلما قال عساف حصل كل شيء بعد ذلك!

في هذا الغمّ الذي يلف الطيبة من كل جوانبها، ويزداد يوماً بعد آخر، كان عساف لا يهدأ ولا يستريح، اذ ما يكاد يعود بعد الغروب، حاملاً معه عشرات الطيور، حتى يبدأ يدقّ بعض الأبواب. كان يختار تلك الأبواب بعناية، ويفكّر بذلك من قبل طويلاً. كان مع كل طلقة ينوي حتى قبل سقوط الطير: «أنت لأم صبري»، «وأنت لداود الأعمى»، «وانت لسعيد الذي لا يتقن في هذه الدنيا سوى انجاب البنات»!

هكذا كان يفعل وهو يطارد الطيور. وحين يدق الأبواب، ولكي لا يخلق ذلك الخوف الغامض المتربص في كل القلوب، والذي يعلن عن نهاية صديق او قريب، كانت الكلمات التي يطلقها عساف في الهواء وقبل ان يفتح له الباب:

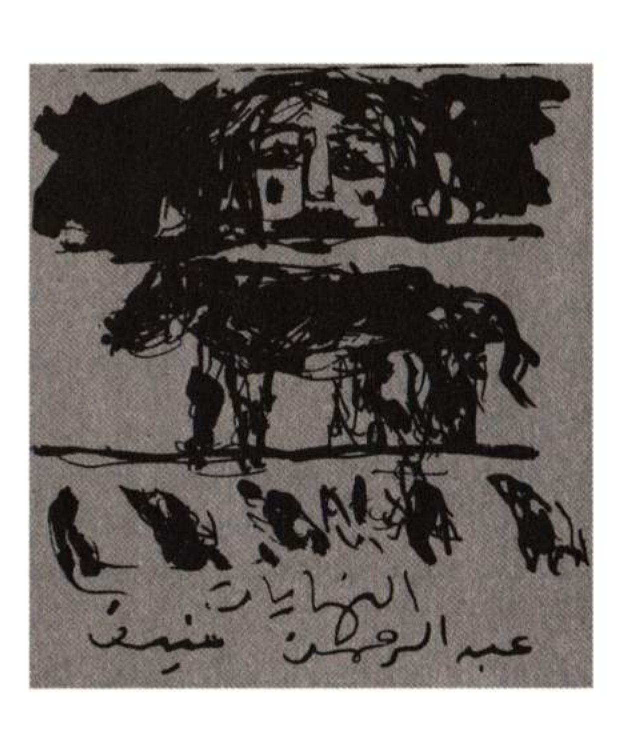
ـ انا عساف، جئت لأمسي عليكم!

وقبل ان يسمع الكلمات التي تنهال عليه، يكون قد ألقى بعض الطيور ومشى!

كان يفعل ذلك كل ليلة، ولا يبقي لنفسه إلاّ طيراً، وبعض الأحيان لا يبقي شيئاً. وحالما ينتهي من هذه المهمة، وعلى ضوء فانوس صغير يبدأ بتحضير خرطوش اليوم التالي. يبدأ مهمة لا تعرف التعب او التوقف، ولا يكاد يأكل لقمة في نهاية السهرة

حتى يغط في نوم عميق. وفي هذا النوم يرى أحلاماً لا حصر لها، كانت تتراءى له آلاف الصور: كيف كانت الطيبة وكيف هي الآن؟! ويسأل نفسه: لماذا تصبح الحياة اكثر صعوبة يوماً بعد آخر. اما حين تظهر له صور الأشجار والطيور، ثم صورة الماء الجاري دون توقف، وصورة الربيع يغطي مساحات لا نهاية لها، فكان يرى كل شيء يطير. كانت السماء تمتلىء بالطيور، وكان الصيادون لا يصيدون إلاّ في المواسم والطيور التي يجب ان تُصاد. ثم تظهر له صور الذين ماتوا، أمّا حين يبدأ المطر بالسقوط ويخاف ان توحل الأرض وتمنعه من العودة فكان يركض، وعند ذلك يفزع ويستيقظ من نومه وقد امتلأ خوفاً ان يكون الوقت قد فاته. وحين يحس برائحة الغبار تملأ جو الغرفة يفرك عينيه لكي يتأكّد من الوقت. كانت له ساعة في داخله لا تخطىء. لم تخطىء مرة واحدة طوال هذه السنين، لا تخطىء في الصيف ولا في الشتاء. حتى الذين كانوا يأتون إلى الطيبة من المدينة، ويستعدون كثيراً من اجل رحلة الصيد مع عساف، وينصبون الساعات المنبّهة، ويصدرون الأوامر الصارمة الى المسنّين لكي يوقظوهم في الوقت المناسب، لئلا يتركهم عساف ويمشي، بحجة ان الشمس ستشرق ويضيع اليوم، ولكي يكونوا في «المقوس» عند الشروق، حتى هؤلاء كانوا يخطئون وعساف لا يخطىء ولا تخطىء ساعته!

وعساف الذي تعوّد خلال فترة طويلة ان يخرج الى الصيد وحيداً مع كلبه، كان يجد صعوبة في ان يردّ الذين يطلبون الخروج معه، خاصة من الضيوف، او في سنة من سنوات القحط. كان يتمنى لو يبقى وحيداً لكن ماذا يستطيع ان يفعل وقد


النهايات
عبد الرحمن منيف

أمحلت الأرض وابتعدت الغيوم ولم يعد عند الناس شيء يأكلونه؟ حتى أماكن الصيد التي خبأها لنفسه في فترات سابقة، وكان يردّد لنفسه بإصرار انه لن يترك احداً يصلها ولن يدل احداً عليها، لا يستطيع ان يمتنع طويلاً في اخفائها، لكن كان ينبه بتأكيد حازم:

ـ لا تقتلوا الاناث، إنَّها رزقنا الباقي!

وحين لا يكون متأكداً انهم فهموا جيداً يضيف:

ـ الاناث، اناث الحجل، صغيرة ولونها واضح.

اما اذا سألوه مزيداً من التوضيح والمعلومات فكان يقول:

ـ ديك الحجل، مثل بعض الرجال، جبان.

وينظر في وجوههم ويضحك، ثم يتابع:

ـ انه يخاف على نفسه كثيراً، وهو بلون زاهٍ، ملوَّن أكثر من الأنثى، ويطير قبلها!

ويهزّون رؤوسهم دلالة المعرفة، لكن عساف يخاف هؤلاء الصيّادين، ويكره الجبناء والخبثاء منهم، ويخاف أكثر من ذلك ان يأتي يوم لا تجد الطيبة طيراً تصيده. كان يقول بصوت مليء بالأسى:

ـ هذه الطيور لنا، اليوم او غداً، وستبقى لنا اذا حافظنا عليها، اما اذا قتلناها كلها، اذا طاردناها كثيراً، فسوف تنتهي او تبحث عن مكان آخر.

ويصرخ بعصبية وقد تراءت له الأرض خالية تماماً من طيور الحجل:

ـ اسمعوا، اذا انتهت هذه الطيور وجاءت سنة من سنوات

المحل، واذا ظلّت الحكومة تكذب سنة بعد سنة ولا تبني السدّ، فتأكّدوا ان أهل الطيبة سيموتون عن بكرة أبيهم. أنا متأكد من ذلك، فهل يستطيع ابن حرّة ان يقتل البشر والطيور؟

هكذا كان يجري الحديث في بداية كل رحلة. ورغم ذلك يضطر عساف لقيادة قافلة الصيادين الى أماكن الحجل، لكنه يلجأ إلى المكر أغلب الأحيان: كان يقودهم الى الأماكن الصعبة، إلى الأماكن البعيدة والخطرة، وكان يعرف ان التعب او الخوف اذا دخل قلب الصياد يفقده كثيراً من قسوته ويجعله رحيماً. هكذا كان يفعل في بداية الموسم. اما اذا قست الحياة على الطيبة اكثر من قبل وحاصرها الجوع وبدأ يفتك بها، فكان يتردّد في ان يتجاوز كثيراً من القيود التي كان يفرضها على نفسه وعلى الآخرين، لكنه يتألم، يشتعل بالشتائم ويرتكب الكثير من الحماقات. كان يقول لنفسه لكي يبرّر هذه الخطيئة التي تعذّبه «اذا لم يأكل الناس الحجل فسوف تأكله بنات آوى والذئاب، وحتى لو نجا بعض هذه المخلوقات الملعونة، فسوف يأتي الرعيان لكي يلتقطوا البيض. ويجب ان لا يموت اهل الطيبة».

ان له فلسفة خاصة تكوّنت مع الأيام ومن التجارب، حتى لو اراد ان يقول بضع كلمات لكي يفسر ما يدور في عقله فلن يستطيع. اما اذا سأله احد لماذا يفعل هذا الشيء، ولماذا لا يفعل ذاك، فكان يشعر بالحيرة والعجز، كان يقول:

ـ هذه هي طريقة الصيد، هكذا يفعل الصياد!

ولا يضيف شيئاً آخر!

بهذه الطريقة كان يتعامل مع الصيد، وبهذه الفلسفة الغامضة

يتصرف، ويريد الآخرين ان يتصرفوا. فإذا جاء موسم الطيور المهاجرة يشعر بغبطة داخلية عميقة. كان يقول بصوت عال واضح النبرات، ويريد من كل انسان ان يسمعه:

- ليشمّر كل واحد منكم عن زنده، وليثبت الصياد نفسه!

كان يقول مثل هذا الكلام لكي يضلّل الصيادين الآخرين ويصرفهم عن الحجل. وهؤلاء الصيادون الذين تعبوا كثيراً من الحجل، وحفيت أقدامهم وهم يتسلقون الصخور العالية او وهم يهبطون الأودية السحيقة، كانوا في قرارة انفسهم يقبلون هذا الكلام ويوافقون عليه، وفي نطاق التبرير يقولون لأنفسهم ولبعضهم:

- ما دام شيخ الصيادين، عساف، يقول هذا فيجب ان نصدّقه وان نتبعه!

وكي لا يترك الأمر مكراً مجرداً، كان يسبقهم إلى أماكن الطيور المهاجرة وممراتها، وكان لا يبخل عليهم بأية معلومات تساعدهم وتمكّنهم من صيد أوفر. وهم بتقدير غامض يندفعون، يذهبون حيث يريد، إلى الأماكن التي يحددها وفي الأوقات التي يحدّدها، بهذه الطريقة يضمن ان بعض طيور الحجل لا تزال حية في المعاصي. كان يقول لنفسه بثقة: «حالما تشعر بالأمن وبابتعاد أصوات الطلقات لا بدّ ان تنزل إلى أماكنها وتعيش مرة أخرى بسلام. ومرة أخرى ستفقس وتبدأ الفروخ الجديدة تملأ الجبال والوديان»!

صحيح ان عساف في أعماقه يدرك ان كل حيوان وكل طير يعرف كيف يدافع عن نفسه وإلى أين يذهب، إلاّ انه حين يرى

الصيادين الأغرار يزدادون قسوة ورعونة، ويخرقون كل قاعدة، كان يقول لنفسه بألم «يقتلون الناس بهذه الطريقة. والحجل يعرف كيف يختفي» ويضيف بعد فترة صمت طويلة: «حين طاردوا الغزلان وقتلوها كلها أصبحت الصحراء مثل قبر كبير، لا ترسل إلاَّ الغبار والموت، ويجب ان يكون أهل الطيبة أذكى من غيرهم فلا يقتلوا كل شيء».

كان الحجل، في مثل هذه السنين، وبغريزة غامضة، حتى بالنسبة لعساف نفسه، يعرف كيف يختفي، حتى ليبدو وكأنه انقرض نهائياً، ولن يأتي شروق او غروب في يوم من الأيام القادمة ويسمع صوته مثل دجاجات تائهة في سفوح الجبال الشرقية. عند ذاك كان الصيادون، حتى الأغرار العنيدون، يتحولون. والذي يساعد كثيراً في هذا التحول المفاجىء ان طيور الصحراء، خاصة القطا، تبدأ بالاقتراب يوماً بعد آخر من الطيبة، وباندفاعها الأرعن بحثاً عن الحب والماء تعرّض نفسها للهلاك، حتى الأولاد الصغار، في أوقات معينة، وبتلك الوسائل البدائية التي يملكونها، يستطيعون الاحتيال عليها واصطياد عدد منها!

لكن تبقى قوة الحياة هي الأقوى، إذ يتحول القطا، هذا الطائر الأبله، شيئاً فشيئاً إلى طائر جني، ورغم الجوع والعطش فإنَّ قوة اخرى تسيطر عليه وتوجهه. فالقطا الطائش الذي يمكن ان يقتل بالعشرات والمئات في بداية الموسم، والذي لا يميز الصياد عن الفلاح، لا يلبث ان يصبح طيراً حذراً. والصيادون الذين يبدون نوعاً من الترفع في بداية الموسم، ويصفون القطا بعشرات الأوصاف الرديئة، يصفونه بقسوة لحمه وغبائه، وبانعدام اللذة نهائياً في صيده، حتى هؤلاء يجدون أنفسهم يوماً بعد آخر

وقد انساقوا إلى ملاحقته. وفي هذه الفترة، ولتبرير هذا السلوك، يقولون بصوت عال فيه تلك الكبرياء التي تميّز الصيادين المغرورين:

ـ ضُرب وتنكّح، وأصبح أكثر حذراً من الطيور الأخرى.

ويضيف بعض هؤلاء بثقة كبيرة:

ـ ان صيده الآن أصعب من صيد الحجل!

هكذا تبدأ الدورة تتغير. والطيبة التيْ تعيش اياماً صعبة مريرة، وتبحث عن طريقة لتواصل الحياة، تتغاضى عن أشياء كثيرة، بما فيها رعونة الشباب واندفاعهم الى الصيد بهوس لم يتعوده أحد ولم يكن يميزهم من قبل.

لذلك لا يستغرب احد تلك السهرات التي ينظمها الشباب، بين فترة وأخرى، والتي يتفقون خلالها على الأماكن التي يجب ان يذهبوا اليها. وعلى الطريقة التي تساعدهم في اصطياد عدد كبير من الطيور، خاصة القطا والكدرى. ويسرفون كثيراً في الحديث عن أخطاء الأيام الماضية، وكيف يجب ان يتجنبوها. وعساف الذي لا يشترك في هذه السهرات إلاّ نادراً، ولا يهتم بما يدور فيها، يعرف الى أين يذهب ومتى. وحين يسأله الشباب عن الأماكن والطريقة التي يجب ان يتبعوها، يكتفي باجابات قصيرة وحاسمة:

ـ هذا الجنون الذي يملأ عقولكم لا بدّ ان يقضي على الصيد كله.

وبكلمات قاسية، وفيها ذلك النزق الذي يميزه، يضيف:

ـ الأيام الصعبة لم تأتِ بعد، وعلينا ان نستعد لتلك الأيام!

فإذا سمع كلمات السخرية والتحدي، واذا اتهموه انه يريد التهرب، كان بانفعال يجيب:

ـ اذا وفّرتم الخرطوش، اذا كنتم أكثر عقلاً وصبراً، فالقطا سيصل اليكم، ولن تحتاجوا لأن تذهبوا اليه!

لكن الشباب لا يسمعون، وتظل دوافع مشؤومة وقوية تدفعهم لأن ينتقموا، لأن يتباروا. وتحديات مثل هذه تدفع الطيبة ثمنها. فالطيور التي كانت تهجم برعونة في بداية الموسم، لا يلبث الخوف ان يتملكها، وتبدأ البحث عن اماكن أخرى، او تغير مواعيد مجيئها وهربها. بكلمة؛ تغيِّر هذه الطيور طريقة حياتها، وتصبح الحياة لكل مخلوق أكثر قسوة وأكثر صعوبة. حتى عساف نفسه، الذي كان يعود بأعداد وفيرة من الطيور، يبدأ يواجه الصعوبة نفسها التي يواجهها الصيادون الأغرار، ويبدأ صيده يقل، ويصبح الصيد عملاً مضنياً وأقرب إلى المغامرة.

لكن عساف لا يهدأ ولا يتوقف!

بدأت اذن الأيام الصعبة القاسية. ومثلما اختارت الطيبة ان تكون في هذا الموقع من العالم، على أطراف البادية، فقد اختارت الصيد والشجاعة، وعرفت كيف تتحمَّل كل ما يواجهها من مكاره وصعاب. واذا كانت المجاعات تفرّق عادة بين الناس، وتجعل كل انسان يبحث لنفسه عن طريقة يؤمِّن بها خبزه، فإنَّ المجاعات والأحزان تقرِّب بين الناس في الطيبة، وتجعلهم أسرة واحدة وجسداً واحداً. وما عدا تلك الفئة الصغيرة التي جاءت من مكان بعيد، واختارت الطيبة سكناً لها، وظلَّت تعمل وتتصرف بروح الغرباء وخوفهم، رغم ما قدَّم لها أهل الطيبة، فإنَّ البشر اذا واجهوا المصاعب بروح من التعاون والمشاركة، تبدو هذه المصاعب أقل قسوة، ويمكن التغلُّب عليها. وبهذه الطريقة الفذة المليئة بالبطولة الصامتة، لم يترك أحد يموت دون ان تقدم اليه اقصى المعونات، وأغلب الأحيان بشكل خفي لا يدركه احد. فالأُسر الكبيرة العدد، والتي لا تقوى على مواجهة الحياة، كانت تفتح أبواب بيوتها، في ساعة من ساعات الليل او النهار، ويُرمى داخلها بكمية من الحنطة او قليل من السكر والشاي والصابون. والناس الذين فقدوا كل ما يملكون ثمناً للبذار، ثم ثمناً لبعض الأشياء التي اشتروها من المدينة، كان هؤلاء يجدون مساعدة لا تيسر للذين هم أكثر قدرة منهم. حتى

المقعدون وذوو العاهات، فقد تكفَّل بهم عدد من الشباب، وكانوا يقدّمون لهم الأكل المطبوخ، وغالباً ما يكون حساء من الطيور او الهريسة. أمَّا النساء الأرامل فقد كنَّ في هذه الفترة موضع رعاية كبيرة.

لكن الطيبة التي تستطيع ان تطعم أبناءها اجزاء من لحمها لا تقوى على مواجهة مثل هذه المصائب سنة بعد اخرى بصدرها المكشوف وامكانياتها المحدودة. ورغم ان المسنِّين حذّروا كثيراً من الاسراف، وطلبوا من كل بيت ان يقتصد ما وسعه الاقتصاد، وان يعتبر الأيام التي لا تزال الطيبة تعيشها الآن اياماً رخية، وبعدها ستأتي المصائب الكبيرة كثيفة متلاحقة، فإنَّ الطيبة ظلت تعيش على أمل غامض، وظلت تنتظر شيئاً ما، لكن هذا الأمل لم يتحقق كما توهَّمه الكثيرون، وأصبح الانتظار طويلاً ممضاً!

والأبناء في المدن البعيدة لم ينتظروا صرخات الاستغاثة وإنَّما بادروا إلى تقديم كل ما يستطيعون. بعثوا بكميات من الحنطة والشعير، وبعثوا بالعدس والسكر والشاي والصابون، وبعثوا أيضاً يطلبون ان يأتي عدد من الأهل والأصدقاء، لينزلوا عندهم في المدينة. وأهل الطيبة، خاصة الذين تقدَّموا في العمر، لا يقوون على الاستجابة لمثل هذه الطلبات، ولا يتصورون أنفسهم يرحلون تاركين غيرهم للموت جوعاً وعطشاً. ان مجرد تصور شيء مثل هذا يولِّد في النفوس خجلاً لا يستطيعون احتماله، ولذلك لا يجيبون عن مثل هذه الرسائل، ولا يلبونها. والأبناء الذين رحلوا، وظلوا على صلة مع البلدة يعرفون جيداً ان ما يطلبونه أقرب إلى المستحيل، ولن يستجيب اليه احد، ولذلك بالغوا أول الأمر في ارسال كل ما يستطيعون، ثم بدأوا يتوافدون

إلى البلدة، للزيارة أول الأمر، ثم للمشاركة بطريقة ما من اجل الوقوف في وجه هذا الكرب القاسي، لعلهم يستطيعون عمل شيء، او ان يتعلموا شيئاً. كانت الزيارات تمتد اياماً وتتكرّر في أوقات متقاربة، كما لا تقتصر على المشاركة الوجدانية او الرغبة في تعذيب النفس، وانما كانت ترافقها أشياء كثيرة: كميات اضافية من الحنطة والشعير، أثواب من الخام، وكانت تأتي معها الوعود والكلمات الكبيرة. واذا كانت تلك الموعود أقسى الأشياء وأصعبها لكل انسان في الطيبة، فقد أصبحت في هذه السنة عذاباً لا يطيق احد ان يتحمله. «لم يبق إلاّ القليل ويبدأ بعد ذلك بناء السد. والسد إذا قام لن تعطش الطيبة ولن تجوع. هكذا قال لنا الرجال المهمُّون في العاصمة»، وقالوا ايضاً «انه قبل نهاية الخريف، وقبل موسم الأمطار، ستبدأ الآلات تشق التربة وتدفع أمامها الصخور، وسوف يأتي مئات العمال والمهندسين، وسترون ذلك بأعينكم!».

وأهل الطيبة الذين يقبلون الأشياء التي تأتي ويوزعونها بعدالة مفرطة، كانوا يسمعون كلمات المدينة الكبيرة، ويسمعون عن السد الترابي الذي سينشأ قريباً من الطيبة، ليجمع المياه التي تتدفق سيولاً جارفة في بعض المواسم، ثم تنتهي إلى باطن الأرض. ولا أحد يعرف كيف تغور هذه المياه أو الى أين تذهب، ولا تبقى من تلك السيول غير تلك الكميات الكبيرة من الحصى والمجاري العميقة التي جرفت أجزاء من الأراضي والبساتين! ولا تبقى ايضاً سوى الكلمات الكبيرة والوعود!

كان أهل الطيبة يسمعون ذلك بصمت حزين، ولا يدرون أيكذبون أبناءهم او اولئك الرجال الرابضين هناك في الأبنية

الكبيرة المغلقة؟ كانوا يقولون لأنفسهم: «لقد قيل لنا مثل هذا الكلام مرات كثيرة، وتنقضي السنوات، سنة وراء سنة، ولا شيء يتغير» وأهل الطيبة الذين تعوَّدوا نسيان السد والطريق والكهرباء في مواسم الخير، ولم يفكِّروا يوماً واحداً ان يحصلوا على مثل هذه الخيرات، فإنَّهم في مواسم القحط يتذكرون كلّ شيء، يتذكرون هيئات الرجال الذين أتوا، والكلمات التي قالوها، ويتذكرون ان بعض الذين جاءوا زائرين مع أبناء لهم الى الطيبة في سنوات سابقة، سنوات الخصب والمواسم الطيبة، وذهبوا الى الصيد ايضاً في المناطق المحيطة بالبلدة، ورجعوا وقد امتلأوا بنشوة، وتصرفوا في لحظات معينة مثل الأطفال، وبدوا صادقين، ان بعض هؤلاء أصبح في المدينة البعيدة كبيراً مهماً، بحيث لا يذكر اسمه إلاَّ كما تذكر أسماء الأنبياء والأولياء. ان هؤلاء لم يعودوا يتذكَّرون الطيبة، ونسوا أصدقاءهم، وانتهى الأمر. والطيبة تعض على جراحها في مواسم القحط والجفاف. اما في مواسم الخير فلا تكف عن ان تبعث بسلال المشمش في بداية المواسم، ثم بسلال العنب والتين في نهايته، وبين الموسمين تبعث اللبن والجبن والبيض والخراف الصغيرة أيضاً، ولا تنتظر شيئاً من المدينة. تبعث الطيبة كل هذا برضى أقرب إلى الحبور، ويتصور الآباء والأمهات، وهم يبعثون بالسلال وأكياس اللبن في السيارة الصغيرة التي تذهب في الصباح الباكر، إنَّهم لا يقومون بواجب فقط، وإنما يحسّون بالمرارة والحزن ان تأخَّروا عن موعد سيارة الموظفين، او ان لم يستطيعوا قطف التين في الوقت المناسب!

والطيبة التي لم تتنكر ولم تتغير، وظلَّت وفية لكل شيء فيها ولكل انسان عاش او مرَّ في يوم من الأيام، خلقت هذا الوفاء

الفذ في أبنائها، والذي لا يوجد مثيل له فيما جاورها من القرى، ولا يوجد ايضاً في القرى البعيدة.

في هذه السنة القاسية الملعونة جاء عدد كبير من أبناء الطيبة، جاءوا دون طلب ودون ايعاز من أي نوع، وما كادت أرجلهم تطأ أرض الطيبة، وعيونهم تلامس بيوتها، حتى أحسُّوا بالحزن العميق، ولاموا أنفسهم كثيراً إنَّهم تأخروا حتى هذا الوقت، وشعروا بتأنيب الضمير حين قارنوا حياتهم في المدينة بحياة الناس في الطيبة. لكن هذا الحزن وهذا الندم تراجعا بسرعة ليحل مكانهما الرغبة القوية في ان يفعلوا شيئاً، لعلَّ الطيبة تنجو هذه المرة، ولعلها تحيا وتستمر إلى ان يُبنى السد، او يقع شيء ما في المدينة البعيدة، ويصبح من الممكن بعد ذلك مواجهة الطبيعة القاسية دون انتظار للوعود الكاذبة او للمطر الأبله الذي يأتي سنة وينقطع سنوات.

نزع الذين وصلوا لتوّهم ملابس المدينة، ولبسوا مثلما كانوا يفعلون حين كانوا في البلدة قبل سنوات. وخلال اليوم الأول مروا على أكثر بيوت الطيبة، وسألوا عن الرجال والنساء، وحزنوا كثيراً على الذين ماتوا، وفكّروا في أمور واقتراحات كثيرة، وقرَّروا بينهم وبين أنفسهم عدة أمور، ان هم عادوا إلى المدينة مرة أخرى. لم يكتفوا بذلك، بل وزعوا ما جاءوا به، وكتبوا رسائل عديدة إلى أقرباء وأصدقاء في المدينة البعيدة وفي المهجر. وفي الليل سهروا طويلاً يفكّرون ويتكلمون، لكنهم كانوا يحسون في أعماقهم بالمرارة تكوي لهاتهم مع كل كلمة يقولونها، لأنَّهم لم يكونوا متأكدين من شيء!

وإذا كانت الطيبة كثيرة الصبر والتسامح، وتغفر للغرباء

مثلما تغفر لأبنائها، فإنَّها تعرف الغضب في مواسم الجفاف، وهذا الغضب الذي قد يأخذ شكلاً هيناً في بعض الأوقات يتحول في النهاية إلى جنون لا يطيقه ولا يتصوره احد.

قال احد القادمين، وكان شاباً يدرس في مكان بعيد:

ـ الناس هناك لا يفعلون كما تفعلون انتم هنا، إنَّهم، هناك، يحوّلون الكلمات إلى قوة. قوة منظمة ومحاربة، ويجب ان نفعل مثلهم شيئاً عاجلاً قبل ان يلتهمنا الموت.

قال رجل مسنّ، وهو يقلب شفتيه باستنكار، ويقلب نظراته بين الأرض والسماء:

ـ وماذا تريدنا ان نفعل؟

وقبل أن يجيب الشاب تابع الرجل:

ـ يجب ان تعرف، لا أحد يستطيع مقاومة الحكومة. علينا ان نكون عقلاء ونفكّر بما نستطيع عمله.

قال الشاب بعصبية:

ـ القحط اذا جاء تنامون سنة كاملة، واذا لم يجيء ترسلون الدعاء والرسائل ولا شيء غير ذلك، وبهذه الطريقة لن تبقى الطيبة!

قال والد ذلك الشاب:

ـ الطيبة، يا ولدي، باقية، لقد مرَّت سنوات صعبة كثيرة مثل هذه، تحمَّل الناس تلك السنوات وعاشوا بعد ذلك، وظلَّت الطيبة.

ردَّ الشاب بسخرية:

ـ الموت والحياة في مثل هذه الظروف متساويان. انظروا إلى الأرض والأشجار والدواب. وانظروا في وجوه البشر، ان كل شيء يموت، واذا جاءت سنة مثل هذه السنة فلن يبقى شيء!

كان يمكن لهذا الحديث ان يستمر وان يتطوّر لكن حين دخل الضيوف، الذين جاءوا عصر ذلك اليوم، إلى المضافة، تغيَّر الجو فجأة.

•

في عصر ذلك اليوم، في نهاية فصل الصيف تقريباً، جاء اربعة من الضيوف، جاءوا مع أصدقاء لهم من أهل الطيبة، جاءوا في سيارتين، احداهما سيارة جيب والأخرى فولكس ڤاكن صغيرة رمادية. ورغم ان أبناء الطيبة، المقيمين والراحلين، يتميَّزون برهافة الحس ودماثة الخلق، ويعرفون كيف يعضُّون على جراحهم بصمت ويكتمون أحزانهم بصبر عجيب، حتى يخطىء الكثيرون في فهمهم او تحديد مشاعرهم، فإنَّ الكثير من المتاعب والمشاكل التي يريدون بحثها والحديث فيها حين يخلون لأنفسهم، يتركونها جانباً، ويتحدَّثون بطريقة مختلفة حين يأتي الضيوف. والمسنُّون الذين تعوَّدوا على كتم مشاعرهم وانتظار الأوقات المناسبة للحديث، يختلفون عن الرجال الأصغر سناً، اذ يُصاب هؤلاء بنوع من الحمى ولا يقوون على كتم الأفكار والمشاعر التي تملأ صدورهم، خاصة في موسم مثل هذا الموسم.

كانت هناك رغبة لأن يتحدث بعض الرجال للمرة الأخيرة، أمام الضيوف. وإذا كان الكثيرون من أهل الطيبة قد انتظروا بصبر فارغ مجيء الأبناء من المدينة، لكي يتحدثوا للمرة الأخيرة، في أمر السد، متى يجب أن يقوم وماذا فعلوا من أجل قيامه، وانهم لم يعودوا قادرين على الانتظار أكثر مما فعلوا، وإذا صبروا وتحمَّلوا السنين الماضية بصمت فلن يستطيعوا بعد اليوم احتمال

ذلك، وسوف يلجأون إلى وسائل جديدة لإقناع الكبار هناك في المدينة، بمدى القدرة التي يمتلكونها.

إذا كان أهل الطيبة قد انتظروا طويلاً، فقد خاب ظنَّهم تماماً حين رأوا عصر ذلك اليوم سيارتين غريبتين تدخلان الضيعة. أمّا حين تعانق الآباء والأمهات مع أبنائهم العائدين، فقد طغت للحظات قوة الحب على قوة العتاب، وجاشت الدموع في العيون وغلبت جميع المشاعر الأخرى. ونتيجة ذلك تراجعت الأفكار والكلمات الغاضبة لتحل مكانها مشاعر المودة وكلمات الترحيب. والضيوف الذين لم يروا الطيبة قبل هذه المرة، لم يروا فيها شيئاً مختلفاً، ولم يحسوا بذلك الدوي الداخلي الذي يولّده الجفاف. أمّا حين قابلتهم الابتسامات الواسعة والترحيب الحار فقد أحسُّوا بدفء داخلي وحسدوا هؤلاء الناس على هذا الرضى الذي يمتلكونه!

بهذه الطريقة تأجّلت أُمور كثيرة وحلّت أخرى مكانها. فالأشياء التي حملها الأبناء من المدينة وُزّعت بعناية، واختلى بعض المسنّين لينصحوا بعضهم ان يتصرفوا بحكمة، ولكي يطلبوا من الشباب احترام الضيوف مثلما تعوّدوا دائماً، دون اثارة لأية أحزان او مشاكل. وقالوا في أنفسهم: «سيبقى الضيوف يوماً أو يومين ثم يرحلون، وبعد ذلك سوف نقلب الدنيا على رؤوس هؤلاء الأبناء العاقّين، الذين لا يعرفون شيئاً في الدنيا سوى ارسال بعض الحاجات في مواسم الجفاف، وكأن الطيبة أصبحت مأوى للمتسوّلين والجياع، ويجب ان تبقى كذلك». اما الوعود الكثيرة عن المياه التي ستتدفق طوال أيام السنة، أمّا عن الأسماك التي ستزرع في البحيرة، عن القنوات التي ستمتد إلى مسافات

بعيدة، فقد انتهى الأمر كله، ولم يبق إلاَّ صدى الكلمات يتردّد كل بضع سنين، شفقة او حسرة على هذه البلدة التي تموت يوماً بعد يوم.

هكذا كانت الساعات الأولى، وهكذا كانت مشاعر الناس، وأبناء الطيبة الذين أحسُّوا بغريزتهم ان كل شيء قد تغيَّر في البلدة، وان الأيام التي يعيشها أهلها من القسوة الى درجة لم يكونوا يتصورونها، ورأوا التغيُّرات العميقة التي دخلت في كل شيء يلمحونه، شعروا انهم أذنبوا كثيراً، وان أية كلمات تقال الآن لا بدَّ ان تكون عاجزة ولا تعبِّر عمَّا تفيض به قلوبهم. ولأنَّ الضيوف قد أتوا، ولأنَّهم تعوَّدوا على شكل معين من التصرفات، فقد فهموا من النظرات، من الاشارات، وحتى من لمسات الأيدي، ان الطيبة تغلي ولا بدَّ ان تنفجر بشكل أو آخر، لكن هذه المشاعر تُركت جانباً، لأنَّ الضيوف بدا لهم كل شيء غريباً وطريفاً!

أمَّا حين انعقد مجلس السمر فقد تركَّز الحديث على الصيد، لأنَّ الضيوف جاءوا لهذه الغاية. وما دام الضيوف يريدون هذا، فإنَّ هذا ما حصل!

وأهل الطيبة الذين كانوا قادرين على التحدّي والغضب في أوقات معينة، فقد كانوا قادرين ايضاً على الصبر، ويلجأون إلى كل الوسائل لمواجهة الجوع والموت. وحين يُذكر الصيد وسيلة لمواجهة المجاعة، وانقاذ ما يمكن انقاذه، تتردّد كلمة واحدة، وكأنَّها كلمة السر: أين عساف؟ ودون عناء كبير يتبرع الكثيرون لمناداته، لإحضاره. وفي غمرة الحزن والجوع والتحدّي ومواجهة الموت، ومن أجل التغلّب على الحزن والجوع والموت، تفلت

كلمة ساخرة، أقرب إلى الدعابة، يقول أحد الحاضرين، ليتغلب على المناقشة الحادة التي بدأت ولا يعرف كيف ستنتهي:

ـ نريد عساف، احضروا عساف حياً أو ميتاً!



دخل عساف عصبياً مخطوف الوجه، وبغمغمة لا تكاد تُفهم، ألقى التحية، وجلس قريباً من الباب. وأهل الطيبة الذين تعوَّدوا على عساف، وقبلوا جنونه، رفضوا بكثير من الإصرار ان يصطحب كلبه معه الى سهراتهم وإلى مجالسهم. وهذا الرفض الذي آذى عساف كثيراً، قابله برفض أشد قسوة وأشد اصرار، حتى انتهى الأمر الى ذلك الاتفاق الضمني بأن يدخل عساف إلى المجلس دون ان يصافح احداً، وان يبقى كلبه قريباً من الباب. واذا كان عساف قد قَبِلَ هذه الشروط مكرهاً، فإنَّ علاقته بمجالس البلدة وأحاديثها قليلة إلى درجة ان الناس لا يرونه إلاَّ نادراً. اما اذا جاء ضيف إلى البلدة من أجل الصيد، فقد كان أوّل الذين يجب دعوتهم وحضورهم هو عساف. وعساف الذي لا يحب حضور المجالس، يكره ايضاً هؤلاء الضيوف، ويعتبرهم، أغلب الأحيان، ثقلاء شديدي البلادة والخور، لكن مثلما علّمته الطيبة، كان مضطراً إلى مصاحبتهم وإلى مجاملتهم، ومن أجل ذلك كان يتحمَّل الكثير!

في هذه الأمسية، وحين أتوا بعساف، أحسَّ ان الأمر غير عادي. أمَّا حين جلس قرب الباب وأجلس كلبه إلى جانبه، فقد سمع أكثر من صوت يدعوه إلى صدر المجلس، وازاء رفضه، نهض واحد من أبناء الطيبة القادمين مع الضيوف، ومدَّ يده يحيِّي

عساف بحرارة أول الأمر، ثم يسحبه بقوة لكي يغيِّر مكانه. استمر الأمر بعض الوقت، بين القبول والرفض، إلى ان اقترح أحد المسنِّين انتقال عساف وبقاء الكلب حيث كان.

ان في حياة كل انسان لحظات من الخصوبة لا يدركها، ولا يعرف متى او كيف تأتيه أو كيف تنفجر في داخله. إنَّها تندفع فجأة، تعربد مثل الرياح او مثل الأمطار الغزيرة المفاجئة، وتطغى على كل شيء، ومثلما تأتي فجأة تنتهي كذلك، وكأنَّها مياه غارت لتوّها في أرضٍ رملية عطشى!

هذه اللحظات لا يخطط لها أحد ولا يدبرها أحد، حتى لو أراد. وعساف الذي جاء مكرهاً، ليلتقي ببعض الوجوه التي لم يرها من قبل، وقد لا يراها مرة أخرى بعد ان تغادر الطيبة، والذي أغضبته كلمة أحد المسنِّين حين طلب منه ان يُبقي كلبه عند وصيد الباب، وجد نفسه فجأة في عالم من الوجد وأقرب ما يكون الى التجلِّي، اذ ما كاد يُسأل عن الصيد، وعن عدد الطيور التي صادها ذلك اليوم، وكيف كان الموسم بصورة عامة، حتى أحسَّ بالاختناق، وتمنَّى لو انه لم يأتِ، وتمنَّى أكثر من ذلك لو يستطيع مغادرة المجلس. لكن كان يعرف أهل الطيبة، يعرف مقدار الود القاسي الذي يكنُّونه له، ويحس ان رابطة عمرها مئات السنين تربطه بكل ما حوله من أرض وبشر وأشجار ومياه، وان هذه الرابطة تكون أشد وأقوى حين تمر سنة صعبة مثل هذه السنة التي تمر على الطيبة.

كان مصمماً، أول الأمر، ان لا يتكلم، فإذا حاصروه بالأسئلة، ولم يجد مجالاً للهرب، فلا أقل من بضع كلمات يقولها، لكن فجأة امتلأ بشعور الألفة والتحدِّي معاً، وأحسَّ ان

قلبه يخفق بضربات سريعة أكثر مما تعوّد حين يكون في مثل هذا الموقف، وقرَّر ان يفعل شيئاً لم يفعله من قبل.

يتذكّر هو نفسه، ويتذكّر كل مَن كان موجوداً. انه لأول مرة في حياته، قرَّر ان يخوض معركة لم يخض مثلها من قبل، ورغم ما يُقال دائماً من أن حياته منذ بدأت معركة متصلة، إذ ما كادت الأسئلة تنهال عليه، وكلها عن الصيد، حتى صرخ بتحدٍّ:

ـ تعال... تعال يا حصان!

وانتفض الكلب فجأة، ومثل حية ملساء، انسل ليجلس عند أقدام عساف.

كانت الحركة مفاجأة، لم يتوقعها أحد، وللحظات خيَّمت الدهشة وعمَّ الذهول. والمسنّون الذين يملكون، أغلب الأحيان، الحق بالأمر والنهي، أحسُّوا ان صوت عساف، وهو يدعو كلبه، غير مألوف، ولا يمكن مقاومته. تبادلوا النظرات فيما بينهم، ونظروا إلى عساف، لكن لأول مرة في حياتهم الطويلة الحافلة يكتشفون في عينيه بريقاً قاسياً وحشياً، ودون وعي او ارادة، تراجعت كلمات الاعتراض لتحل مكانها هزات الرؤوس تعبيراً عن الأسف وشيء من العتاب.

لم ينتظر عساف، اعتدل في جلسته، أجال نظرة طويلة في وجوه الناس الذين خيَّم عليهم الصمت، وبطريقة مليئة بالمحبة والحنان معاً، امتدَّت يده الى الكلب، مسَّد على ظهره اكثر من مرة، ودون ان ينظر إلى أحد، وكأنّه يخاطب نفسه، بدأ:

ـ ماذا تظنُّون يا اهل الطيبة؟ هل تظنّون ان هذه السنة مثل السنين القاسية التي مرَّت عليكم؟ هل تظنون أنّكم ستواصلون

الحياة حتى تأتي الأمطار مرة اخرى؟ ان مَن يظن ذلك أقرب إلى الجنون.

توقف لحظة. عبَّ نفساً عميقاً من سيجارته، وتطلع في وجوه الرجال مرة اخرى، ثم تابع:

ـ قلت لكم ألف مرة: لم يبقَ بيننا وبين الموت إلاَّ ذراع، وهذه الذراع هي الصيد الذي نستطيع ان نوفره حين تأتي الأمطار مرة أخرى. قلت لكم مئات المرات وأنتم لا تسمعون هذا الكلام، وبدل ذلك تزدادون حماقة يوماً بعد يوم. قلت لكم: اتركوا اناث الحجل للسنوات القادمة، انها رزقنا الباقي. قلت لكم: وفّروا الخرطوش ولا تُفزعوا الطير، وعندها سيأتي إليكم بدل ان تذهبوا اليه، لكنكم يوماً بعد آخر تزدادون عناداً وتحدّياً. قلت لكم: انقلوا من النبع حمل حمارين او ثلاثة حمير وارموا بها في الخوابي القريبة، ثم اربضوا هناك حتى تأتي الطيور، فامتلأت وجوهكم بالابتسامات الساخرة وقلتم: عساف انهبل، لأنه يطلب منا ان نبذر ما تبقّى لنا من الماء ونرميه في الصحراء. والآن تأتون بهؤلاء الأفندية وتتظاهرون بالنبل والكرم وتطلبون من عساف ان يصطحبهم إلى الصيد، وان يجعلهم يصيدون! ماذا يستطيع ان يصيد هؤلاء أو غيرهم ما دمتم ملأتم الدنيا بالطلقات المجنونة تبذرونها في الهواء، حتى لم يبق طير من طيور السماء او حيوان من حيوانات الأرض إلاَّ وسمع عدداً لا حصر له من الطلقات؟

وحرَّك يديه بطريقة يائسة، وتطلّع في وجوه الضيوف، ثم تابع بلهجة جديدة:

ـ يا سادة، كان الحجل يصل إلى أبواب البيوت. كانت الغزلان والأرانب تملأ السهل كله. كانت ممرات الترغل كثيرة

الى درجة ان عساف نفسه يحتار إلى أين يذهب وأي الممرات يفضّل. هكذا كان الأمر في الأوقات السابقة، وأهل الطيبة بدل ان يحافظوا علي هذه النعمة، لم يتركوا أي ابن عاهرة ولمسافة الف كيلو إلاّ ودلّوه على الطيبة. اعذروني، أنا لا أقصد أي واحد منكم، انتم على عيوننا وعلى رؤوسنا، لكن اقصد الصيادين الآخرين الذين يأتون من كل مكان، وكأن ليس في الدنيا سوى الطيبة، وهؤلاء الذين يأتون لا يعرفون سوى شيء واحد: القتل. كانوا يقتلون كل ما تقع عليه أعينهم، كانوا يقتلون اناث الحجل قبل ذكورها، لأن الذكور وهي تجفل وتطير من الخوف، كانت تخلّف في قلوب هؤلاء الصيادين خوفاً كبيراً، وبعد ان يستعيدوا شجاعتهم تطير الاناث فيضربونها. والشيء نفسه يفعلونه بالغزلان والأرانب وكل الحيوانات الأخرى، وحين يعودون محملين بالصيد الكثير لا يكتفون بأن يعودوا الى هنا مرة اخرى، انهم يدلّون أصدقاءهم وأصدقاء أصدقائهم، إلى عاشر جدّ، ويحضرون معهم أنواعاً من السلاح لا يتصورها عقل ولا يقاومها صخر، وبهذه الطريقة، وسنة بعد أخرى، أقفرت الطيبة. والآن تريدون من عساف ان يستولد لكم الطيور والحيوانات ولا أعرف أية عفاريت أخرى؟ ماذا يستطيع عساف ان يفعل؟ هل هو مسيح جديد؟ هل هو الذي يبيض ويفقس؟»

ومن جديد امتدّت يده لتستقرّ على ظهر الكلب، وينظر الى الوجوه التي اعترتها الدهشة وخيّم عيها الصمت:

ـ لم يخلق الصيد للأغنياء او الذين يقتلهم الزهق والشبع، لقد خلق للفقراء، وللذين لا يملكون خبز يومهم. وعساف الذي قضى حياته كلها في البرية لا يصيد في مواسم الخير إلاّ ما يملأ

معدته ومعدة هذا الحيوان، أمَّا في مواسم الجفاف، ولكي لا يموت الناس في الشوارع، فيمكن ان يكون الصيد حلاً، كما هو الحال ونحن نستبدل خبز القمح بخبز الشعير، لكن لا أحد يفهم في الطيبة وفي غيرها من المدن والقرى. ان الانسان في هذه الأيام يمتلك روحاً شريرة لا تمتلكها الذئاب او أية حيوانات أخرى، ولهذا السبب نواجه اليوم الجوع، وسيكون الجوع غداً أشد وأصعب. إنَّني أرى ذلك كما أراكم الآن، وإنَّني أخاف من الغد أكثر مما أخاف اليوم الذي أعيش فيه. هذا ما صنعناه بأيدينا!

وبطريقة أقرب الى الفظاظة واليأس تحرَّك عساف يريد أن ينهض ليمشي، وإذا كان كلامه قد خلق جواً متوتراً، شديد الحرج، خاصة لأهل الطيبة تجاه ضيوفهم، فإنَّ حركة غير عادية سرت في الجميع. كانت حركة سريعة غامضة، وفيها ذلك الاحتجاج اللذيذ الذي يشيع الاعتراف الضمني ان ما قاله ذلك المجنون هو الحقيقة ذاتها، ولا يمكن لأحد أن ينكرها او يتنكر لها، وان ما قاله كان يجب أن يُقال!

قال نعيم، وقد جاء مع الضيوف من المدينة، وتحدَّث معهم كثيراً عن الصيد في الطيبة، وعن عساف ومقدرته الفائقة في الصيد، وتحدّث ايضاً عن غرابة طبعه، قال ليخفف من كلام عساف:

ـ ما قلته، يا عم عساف، هو الحقيقة، لكن أنت تعرف أي جنون يعيش في قلب الصياد!

قال أحد الضيوف، بلهجة مستسلمة، وكأنَّه يدافع عن نفسه:

ـ لقد انقطع الصيد في كل المنطقة، وليس في الطيبة وحدها!

ولأول مرة يقهقه عساف، كما لم يفعل ذلك في حياته إلاّ مرات قليلة، وقال بصوت مليء بالسخرية:

ـ ومَن قال ان الطيبة وحدها يسكنها المجانين!

ولكي تفهم كلماته جيداً أضاف:

ـ لقد وصل الجنون إلى كل مكان. وهذه الأسلحة الجديدة ما كان لها ان توجد، حتى لو صنعها بعض المجانين في الأماكن البعيدة، ما كان لها أن تصل، او أن تستعمل في الصيد. إنَّها تقتل كل شيء، ولا تبقي شيئاً!

ومن جديد عاد إلى لهجة السخرية:

ـ إذا كانت المناطق الأخرى تنعم بالمياه والخضرة، وتحصل على ما تريده دون عناء، لأنَّ منها الحكام والعسكر، فإنَّ الطيبة بلدة مسكينة، إذا أمطرت الدنيا وجدت لقمتها، وإذا أمحلت مات الناس جوعاً!

ومرة أخرى تغيَّرت لهجته:

ـ فيما مضى، قبل سنوات كثيرة، كنا نحارب الجوع ونتغلب عليه بالطيور التي تأتي، بالحيوانات التي تقترب من البلدة، وكنا نقاوم الجوع حين نأكل الجراد والجرابيع، أمَّا هذه الأيام فلم يبقَ شيء. فإذا استمرت الحال هكذا فلن تمضي فترة قصيرة حتى تصبح الطيبة مأوى للبوم والوطاويط!

قال ضيف آخر بلهجة خجولة وهو يستعرض صورة الطيبة:

ـ سمعت أن سداً سيُبنى عندكم، وان هذا السد سيروي مساحات واسعة، أليس كذلك؟

قال أحد المسنِّين:

ـ مثلما سمعت، يا ولدي، سمعنا. الفرق بيننا وبينك، اننا سمعنا هذا منذ وقت طويل، ولقد قال لنا ذلك الكبار في المدينة، لكن مَن يدري!

وضحك الرجل بنوع من السخرية وهزَّ رأسه بأسف.

قال مختار الجهة الشرقية:

ـ اتركوا الآن هموم القرية. المهم أن ترتبوا مشواراً مناسباً للصيد، وهؤلاء الكرام لن ينسوا الطيبة، ولن يوفروا أي جهد من أجل اقناع المسؤولين لبناء السدّ بسرعة!

وتحوَّل الجو فجأة. هجم أحد القادمين على عساف، وقبَّله على رأسه، وقال بطريقة مغرية:

ـ ستكون قائد الحملة يا بطرس، وسوف نعود بصيد وفير غداً!

قال أحد المسنِّين مازحاً:

ـ يجب أن تصيدوا صيداً كثيراً. ان الصيد وحده يمكن أن ينقذ الطيبة من الموت!

وتحلقت المجموعة، بمَن فيهم الضيوف، حول عساف، وبدأ الإعداد لمشوار الغد.

قال عساف ليؤكِّد اتفاق الليلة الفائتة:

ـ لو ذهبنا الى الحجل فسوف نرجع بأيدٍ فارغة. قتلوا الحجل لمسافة ألف كيلو. أمَّا الكدرى فقد تنكّح، أصبح يخاف من الرجال والأشباح، ويطير من مسافات بعيدة. لذلك يجب ان نذهب إلى أقصى مكان، وما دام معنا سيارات فسوف تطيّر كل مجموعة للأخرى.

توقف قليلاً وأجال عينيه في الوجوه حوله. كانت العتمة تملأ كل شيء، ولا تبيّن من خلالها سوى برقات سريعة للعيون او توهج السجائر المشتعلة حين تمصّها الشفاه، قال عساف وهو يتحرّك:

ـ أنتم وحظكم، أنتم وشطارتكم!

في غبشة الليل المتأخر كانت رياح ناعمة تملأ الكون وتخلّف نوعاً من البرودة اللذيذة، والرجال الذين انحشروا في السيارتين، كانوا أميل إلى الصمت والتأمل. صحيح انهم تبادلوا بعض الأحاديث السريعة، لكنها كانت في مجملها للتغلب على الصمت والسأم، وفي محاولة لخلق تحريض متبادل، وبدافع الأمنيات قبل أي شيء. وعساف الذي جلس في سيارة الجيب، وكانت في المقدمة، كان شديد الصمت، ولم يجب عن الأسئلة التي وُجِّهت إليه إلاَّ بكلمات قليلة، كان يكتفي بأن يقول:

ـ اصبروا وسوف نرى!

بين فترة وأخرى، ولأن عساف هو الذي يعرف الطريق، كان يحدّد ويصدر الأوامر:

ـ يمين.

ـ يسار.

ـ مرة أخرى إلى اليسار!

والسائق الذي يستجيب بطاعة ودون اعتراض، كان يخطىء بعض الأحيان، فبدل أن يستدير إلى اليسار، كما طلب منه عساف، كان يستدير إلى اليمين، لكن ما يكاد يفطن الى خطئه حتى يستدير بقوة ليأخذ الاتجاه الصحيح. والسيارة الخلفية، التي كانت تسير على مسافة بعيدة نسبياً، لتتجنب الغبار الكثيف المتطاير من الجيب، كانت ترى في كل حركة، في كل التفاتة، مفاجأة أو صيداً، وكانت تتوقع باستمرار شيئاً. لكن عساف الذي عرف هذه الأرض بشكل جيد، كان هادئاً. وحين سأله أحد الجالسين في المقعد الخلفي ان كان الوقت قد حان لإعداد البنادق، أجاب بعصبية:

ـ الصبر مفتاح الفرج. إصبر!

ـ ألا يحتمل ان نجد أرنباً او ذئباً؟

ـ وهل بقيت أرانب؟

ـ أتصور ان هذه الأرض أرض أرنب!

ـ لا تتصور!

وانقطع الحديث مرة أخرى. لم يكن يسمع خلال هذا الصمت سوى الدويّ الصاخب لسيارة الجيب، ولم تكن ترى إلاّ المساحة التي يولدها النور القوي المنبعث من أضوائها.

إنَّها احدى المرات القليلة التي يتوغل أبناء الطيبة وضيوفهم الى هذه المسافة البعيدة في الصحراء. ومع كل ميل جديد تتغير طبيعة التربة ويتغير الهواء. فالمنطقة المحيطة بالطيبة متنوعة التضاريس، متفاوتة أشد التفاوت، إذ تبدأ ببعض الصخور السوداء، وكأنَّها حدود الطيبة من هذه الناحية، ثم تليهاالكثبان الترابية التي تتخللها بعض الصخور الكلسية، ثم الأرض الحصبة الشديدة التنوع. وتتساوى في هذه الأرض قطع الحجارة الصغيرة مع التربة. وتظل هكذا، مع تفاوت بسيط، مسافة طويلة، حتى يقطعها وادٍ، وهذا الوادي يصبح خلال فصل الشتاء مجرى للسيول والأمطار، ولا يكاد الانسان يتجاوزه، وينعطف فجأة ناحية الغرب، ولمسافة ميل او اثنين، حتى تبدأ الصحراء تظهر.

تبدأ الصحراء أول الأمر بخجل، وكأنَّها تكوَّنت في التو واللحظة، اذ ما تزال تحمل بعض ملامح الأرض التي تجاورها، لكن تدريجياً تتغير الأرض، لتصبح نسيجاً واحداً متشابهاً وأقرب ما تكون الى راحة اليد، من حيث الاستقامة، مع التواءات صغيرة ومتفرقة، وكثبان رملية تظهر وتغيب، بين فترة وأخرى.

حين بدأت الصحراء، قال عساف بصوت واضح:

ـ الذين على الشبابيك يمكن أن يملأوا بنادقهم. هنا يمكن أن نجد أرنباً ضائعاً لم تصله بعد طلقات المجانين!

وبطريقة آلية، شديدة الاستجابة، سُمعت أصوات البنادق وهي تُفتح، ثم سمعت أصوات الخرطوش وهي تستقر. قال عساف، وهو يلتفت إلى الخلف، ويكلم الرجل الذي جلس في وسط المقعد الخلفي:

ـ حين نصل الى مكان الصيد الحقيقي سوف تجلس مكاني... هنا!

سأل نعيم، وهو يسوق السيارة، وقد شعر بالخوف أن يتخلّ عساف عنهم في هذه الصحراء الرهيبة:

ـ وأنت، يا عم عساف؟

لأول مرة، منذ بداية الرحلة، ابتسم عساف، ونظر إلى السائق، ثم إلى الرجال الذين يجلسون في المقعد الخلفي. كانت بداية أضواء الفجر تنتشر بهدوء وتتسرب إلى داخل السيارة، وبعد ان تملّ من وجوههم قال:

ـ أنا وكلبي على الأرض، وأنتم في السيارة.

سأله أحد الثلاثة، وكان جالساً في الخلف:

ـ وكيف سنصيد؟

قال عساف بسخرية:

ـ السيارة هي التي تصيد!

ولما أحسَّ ان احداً لم يفهم كلامه أضاف بلهجة مختلفة:

ـ بعد ان طارد الصيادون الطير وأتعبوه بدأ يخاف من كل شيء، ولا يمكن أن يُصاد الآن إلاَّ بالسيارة.

توقف قليلاً، تطلع حواليه، وقال بلهجة جديدة:

ـ حين ترون رفاً من الكدرى او القطا يجب أن تغيروا عليه بأقصى سرعة، وقبل أن يطير كله، قبل ان يبتعد، يمكن ان تأخذوا منه بعض الطيور!

سأل نعيم، ومقود السيارة يضطرب بين يديه حين أمسك البندقية:

ـ وأنت يا عم عساف؟

نظر إليه عساف نظرة مشجعة وأجاب:

ـ لا تخف، سنبقى أنا والكلب على الأرض، والذي يفلت منكم، الذي يطير باتجاهي ويقترب، سوف يكون نصيبي!

بعد فترة من السير، ولما أحسَّ عساف انه وصل المكان المناسب، نظر إلى الأفق نظرة دائرية واسعة ليتأكّد. وبحركة من يده، مع غمغمة غير واضحة، طلب من نعيم ان يقف. ظنَّ الجميع أن عساف رأى صيداً، لأنَّ الوقفة السّريعة التي وقفها نعيم خلقت شعوراً قوياً بالمفاجأة، لكن عساف وهو يفتح الباب، ويطلب من الكلب النزول، قال بهدوء وكأنَّه يلقي موعظة:

ـ يجب ان نبقى في دائرة، وهذه الدائرة قد تتسع وقد تضيق، لكنها تبقى دائرة، والطير لن يبعد كثيراً. ما عليكم إلاَّ ان تعرفوا كيف تساعدون بعضكم، ويجب أن يفهم جماعة السيارة الثانية هذا.

بعد قليل وصلت السيارة الثانية، ووقفت بهدوء الى جانب الجيب، ولكي لا يترك عساف الأمر غامضاً، قال بصوت عال:

ـ سنبقى أنا والكلب على الأرض، وأنتم، كل في اتجاه، تطاردون الطير، والكدري في مثل هذا الوقت لا يخاف وهو بطيء الطيران، ويمكن أن تصل السيارة إلى وسط الرف ولا يطير، واذا كنتم صيادين فسوف يكون الصيد كثيراً!

وأضاف كأنَّه يخاطب نفسه:

ـ أعتقد ان احداً غيرنا لم يصل هذا المكان منذ فترة طويلة، وما دام الطير غير مضروب فإنَّه لا يجفل، وسيكون الصيد كثيراً!

قال أحد أبناء الطيبة:

ـ الأفضل ان تبقى معنا يا ابو ليلى، السيارة واسعة ويمكن أن نتصيد على مراحل.

ـ الأفضل أن أبقى على الأرض.

توقف لحظة ثم أضاف:

ـ والأخ يجلس هنا.

وأشار الى الشخص الذي يجلس في وسط المقعد الخلفي، يطلب منه ان يتحوَّل ليجلس مكانه!

وبعد فترة صمت قصيرة، ولكي لا يترك مجالاً لأية مناقشة، تابع:

ـ الأفضل أن تكونوا في السيارات، وان تساعدوا بعضكم: كل سيارة تطيّر للسيارة الثانية، وأنا على الأرض، لأنَّني بهذه الطريقة أعرف كيف أصيد!

وخلال بضع دقائق، وبتوضيحات عديدة ومتزايدة، خاصة من أبناء الطيبة الذين يرافقون الضيوف، وبمشاركة قصيرة، لكنها حاسمة وشديدة الوضوح من عساف، تمَّ الاتفاق على كل شيء. وقبل أن تتحرك السيارتان، كل واحدة باتجاه، مدَّ نعيم الى عساف بعلبة من الخرطوش، وأطفأ أنوار السيارة.

وبدأت رحلة الصيد!

هواء الصباح الطري يملأ الكون بنعومة خائفة أقرب الى اللذة الراعشة، وهذه اللذة تتسرب إلى العظام مباشرة. أمَّا المدى الفسيح، بلا نهاية، فيولد رهبة خاصة لا تولدها إلاَّ حالات ولحظات معينة في الكون والطبيعة. الصحراء المترامية، بذلك اللون الرصاصي في غبش الصباح، لا يماثلها إلاَّ البحر. أمَّا الشعور بالضآلة والانتهاء، ثم الاندماج مرة أخرى، فلا يتولد إلاَّ في عصف الرياح المجنون وفي الأمطار الغزيرة التي تبدأ لكي لا تنتهي. وشعور الظلمة الذي يلف كل شيء، ويجعل المخلوق، خاصة اذا كان بشراً، ضئيلاً متلاشياً، فإنَّه يطغى على الانسان في الصحراء أكثر مما يطغى في أي مكان آخر، حتى ليشعر الانسان انه متروك ووحيد، إلى درجة لا تخطر على باله. ومن شعور الوحدة يتولّد الخوف والرهبة والانتظار ورغبة التخفي والصراخ والاتحاد مع شيء ما وآلاف المشاعر الأخرى التي تعجز عنها كل الكلمات.

حتى في الأوقات التي يكون الانسان مع الآخرين، يحس انه في الصحراء وحيد، وانه يواجه عدواً أقوى منه آلاف المرات. وهذا العدو لا يمكن ان يقاوم، لكن من الضروري مصادقته، او الاحتيال عليه، والاذعان إلى شروطه.

هكذا كان شعور الصيادين وهم يواجهون هذا العالم لأول

مرة. حتى الذين جاءوا برغبة لا تقاوم للصيد، وضمن أية شروط، داخلهم الخوف واستقرت في قلوبهم رهبة غامضة، «ماذا لو ضعنا؟» «ماذا لو غرزت السيارات في الرمال الصاخبة الملعونة؟» «وهذه الطيور، ألم تجد مكاناً غير هذا المكان البائس لتعيش فيه؟».

وفي مثل هذه الظروف يصبح الانسان، مهما امتلك من القوى، ومهما عربدت فيه التحدّيات، أقرب إلى الضآلة. يتمنى لو كان أكثر عقلاً ولم يدخل هذه التجربة. حتى الصيد في هذا المكان الفسيح الموحش له طعم مختلف، يصبح أقرب إلى المغامرة الخطرة يمارسها الانسان برغبة إثبات القدرة والتأكُّد من الوجود، أكثر مما تحمل من لذة المطاردة والانتظار والانقضاض. ففي الصحراء يمتلك صفات تنفجر في داخله فجأة. يمتلك صفات التواضع ومحاولة التعرُّف والصبر. ويتطلع إلى كل ما حوله بحيرة أقرب إلى التساؤل.

أمَّا اذا انفجرت رفوف الكدري كما تنفجر القنابل بين الأرجل، فإنَّ الانسان نفسه يصبح مخلوقاً آخر يتحوّل فجأة إلى أبله يطارد ظله، إلى انسان يعارك نفسه ويريد ان يقضي عليها قبل أن يقضي على الغير، فيغادره الخوف وتزول منه الرهبة ويتحوّل بين لحظة وأخرى إلى وحش من نوع خاص. فإذا تجاوز هذه اللحظة، ومضى عليها زمن طويل، فإنَّه ينظر إليها بنوع من الاعجاب يصل حد الغرور، ويتساءل بزهو: «هل دخلت هذه التجربة وخرجت منها سالماً؟». «هل يشبه صيد الصحراء أي صيد آخر في الكون؟».

هكذا بدأت الرحلة. وأية محاولة لاستعادة تلك اللحظات

تقف عاجزة بائسة أمام هذا الملكوت الشامخ الذي يملأ كل شيء.

فالسيارتان حين بدأتا الحركة تملّك كل مَن فيهما خوف مفاجىء، ولم يستطع أي انسان من البشر السبعة الذين كانوا محشورين فيهما أن يقول شيئاً ذكياً أو ان يتصرف تصرفاً واضحاً مقصوداً.

كانت حركة السيارتين بطيئة أول الأمر، وبلا اتجاه. وكان السائقان، وكل واحد في أي من السيارتين، ينظر إلى الآخرين، ينظر إلى الذين حوله وينظر الىْ السيارة الأخرى، ولقد امتلأ بمشاعر الخوف والانتظار، وتملكته في لحظات معينة مشاعر الندم انه جاء الى هذا المكان، والى هذا النوع من الصيد. ورغم ان المسافة بين السيارتين لم تكن بعيدة، ولا تزيد عن بضعة مئات من الأمتار، فإنَّ حالة أقرب إلى العجز سيطرت على الجميع في الوقت الذي ظلَّ عساف مزروعاً في الصحراء وشبحه يبتعد ويختفي كل لحظة. أمَّا كلبه الذي كان واضحاً خلال بعض الوقت، فقد أخذ يبتعد ويصغر حتى تلاشى تماماً!

في إحدى اللحظات العمياء، وعلى غير انتظار، انفجر رفّ من الكدري. بدا في عتمة النور الأولى أشبه بالطيور الأسطورية. كان لإنفجاره دوي هائل، وظلَّ هذا الدوي وقتاً طويلاً، لا يملأ الآذان والعيون فقط، بل يستقر في القلوب ويسيطر عليها. أمَّا الطلقات الخائرة المرتجفة التي توالت، الواحدة بعد الأخرى، فلم تخلف شيئاً سوى موجة من الدخان الأزرق تلاشى تدريجياً مع رياح الصباح.

إنَّها المفاجأة الأولى. وإذا كان كل واحد من الصيادين الذين كانوا في سيارة الجيب، والذين التقوا بهذا الرف، قد امتلأ

اصراراً وتملكته مشاعر الخيبة، فقد قال الجميع كلمات بائسة لتبرير الفشل. أمَّا صيادو السيارة الأخرى فنظروا بحسرة وحقد، وقرَّروا في أعماقهم ان لا يكونوا خائبين بهذا المقدار. والكلمات العرجاء التي تبادلها ركاب السيارة الجيب، فيما بينهم، لتبرير هذه الخيبة، قابلتها شتائم وتحديات من ركاب السيارة الأخرى!

إنَّها التجربة الأولى. ومثل كل التجارب الفاشلة، وفي جميع المجالات، يتولّد في الانسان نوع من الاصرار أقرب ما يكون إلى الرعونة، إذ ما كاد ذلك الرف يتلاشى في الأفق مبتعداً حتى أسرعت السيارتان معاً، وخيَّم التحفّز الحذر على الجميع. امتدت البنادق أكثر من السابق، وبرقت العيون بالحقد.

وأبناء الطيبة الذين عرفوا أنماطاً كثيرة من الصيادين، وكانوا شديدي الحذر والدقة في ان يطلقوا أية كلمات أو أوصاف لتقييم الصيادين الآخرين، كانوا متأكّدين من شيء واحد: مَن لا يعرف الصحراء، مَن لم يرَ هذا الطير، لا بدَّ ان يُصاب بالخيبة بعد الرحلة الأولى. لم يقولوا هذا الكلام مباشرة، لكنَّهم كانوا واثقين من هذه القناعة، خاصة وان أغلب الضيوف الذين جاءوا، وادَّعوا كثيراً، وأسرفوا في الحديث عن الطيور التي صادوها، وعن الأماكن التي ذهبوا اليها، أثبتت التجربة شيئاً مختلفاً. اذ كثيراً ما ادَّعى الصيادون ان جبال الطيبة أقسى من أية جبال رأوها، وان حجل الطيبة ملعون إلى درجة لم يروا حجلاً آخر مثله. كانوا يقولون ذلك حين يصعدون إلى الجبال. أمَّا اذا ذهبوا إلى ممرات الترغل، وعادوا بصيد قليل، فكانوا يعزون ذلك إلى أسباب وهمية وأقرب إلى الغباء. الآن، في هذه الصحراء الفسيحة، هذا الطير الذي يرونه ينفجر أمامهم ويثير استفزازهم، لا يعرفون أية أكاذيب

يمكن ان يقولوها لتفسير هذه الخيبة؟ ولكنها عادة من عادات الصيادين، حين يندفعون برعونة زائدة إلى التحدي، ثم إلى التبرير وأخيراً إلى الكذب!

بعد الرف الأول طار رف ثان. ومثلما واجهت سيارة الجيب عدداً من الرفوف وطار بعضها حول السيارة، وكأنَّه كان داخل قفص ثم انفلت فجأة، فإنَّ السيارة الأخرى قابلت عدداً مماثلاً، وربما أكثر قليلاً. وإذا كان لصيادي هذه السيارة بعض المعاذير، حول ضيق الشبابيك، وعدم امكانية التحرُّك بسهولة، فإنَّ صيادي سيارة الجيب كانوا أقل قدرة على التبرير.

كانت السيارتان، وهما تبحثان عن دائرة لتدورا فيها، تمتلئان بنوع من الحرج أقرب إلى الخجل، وفي بعض اللحظات أقرب إلى الخوف. فبعد أكثر من ساعة، وبعد أن طارت عشرات الرفوف من الكدري، وكانت الحصيلة ثلاثة طيور في الفولكس ڤاكن، وطيرين في سيارة الجيب، تملكت الجميع رغبة في توسيع قطر الدائرة، في محاولة لاكتشاف مجال واسع والعودة بصيد أوفر. كانوا يشعرون بنوع من الخجل، وكان كل واحد متأكداً انهم لو عادوا إلى عساف بهذه الحصيلة، بعد كل الطلقات المجنونة التي ملأت الفضاء، فسوف يسخر منهم. وهذا الشعور لم يقتصر على ركاب سيارة واحدة، او على واحد من الصيادين فقط. كان شعوراً ضمنياً صامتاً، لم يستطع أحد ان يقوله، لكن كل واحد تصرَّف بدافع منه وتحت تأثيره. حتى الرغبة أو الكلمة، التي يقولها أي واحد في الذهاب الى هذا المكان أو ذاك لم تكن تجد اعتراضاً من أحد. كان الجميع يمتلىء خوفاً، خاصة وان كل واحد قدَّر ان عساف قد اصطاد مئات الطيور!

هذه المشاعر رغم قوتها وسيطرتها الغامضة، فإنَّ مشاعر أخرى كانت ترفع رأسها بين لحظة وأخرى: الخوف من الصحراء، والتيه في هذا البحر القاسي الذي ليس له بداية وليس له نهاية!

حين ارتفعت الشمس في السماء بضعة أذرع، وارتفعت معها الحرارة وارتفع الغبار، شعر الجميع برغبة اللقاء مرة أخرى، مهما بدا هذا اللقاء قاسياً مريراً، خاصة وان عساف كان قد نبَّههم إلى ان الكدري مع تقدم النهار يرحل، وانه يذهب إلى أماكن بعيدة بحثاً عن الماء والطعام. وان الصيد خلال النهار من الصعوبة وعدم الجدوى إلى درجة كبيرة.

وبطريقة غامضة مليئة بالتردُّد بدأت السيارتان تتجهان إلى منتصف الدائرة. وإذا كان لكل مكان في الدنيا دائرة، ولها منتصف، فإنَّ الصحراء ملعونة الى درجة الرجم، لأنَّ كل ذرة منها دائرة، ولأنَّ كل مكان منتصف الدائرة. ومع ذلك، وبمعرفة أبناء الطيبة باتجاه الريح، وتذكّرهم أن ريحاً غربية كانت في بداية الرحلة، بدأت الدائرة تضيق تدريجياً، وبعد ساعة من البحث، ومن النظر المدقق، رأت سيارة الجيب زوالاً بين السواد والزرقة، ودون تردُّد قال أحد أبناء الطيبة:

ـ عساف... ذاك هو عساف!

وبلهفة أقرب إلى الوجد، ودون تساؤل أو انتظار، اتجهت السيارة نحوه، وبعد دقائق كانت السيارة الأخرى قد وصلت.

كان عساف منبطحاً على الرمل، والكلب قريبٌ منه، وكانت البندقية ملقاة الى جانبه، وكأنَّها لا تعنيه. كان يعبث بالرمل

ويبتسم ابتسامة خفيفة، أمَّا الطيور التي اصطادها فقد كوَّمها مثل تل صغير الى جانبه، وكانت مناقيرها باتجاه واحد..

حين نظروا إلى تل الطيور أُصيبوا بذهول حقيقي، كانت بالنسبة لهم تلا مستحيلاً، رقما مستحيلاً. أمَّا حين بدأوا بانزال الطيور من السيارتين فقد نظر اليها عساف بدهشة أقرب إلى الاستغراب، لكنه بسرعة لملم دهشته، وقال بطريقة أبوية للتخفيف عنهم:

ـ الصيد في السيارة يحتاج إلى التعوُّد، والرفوف التي كانت تطير من عندكم كانت تأتي إلى هنا!

أمَّا حين سأله أحد الضيوف عن عدد الطيور التي صادها فقد قال بتواضع:

ـ حوالى العشرين، لم أعدّها.

ولم يسأل عن العدد الذي صادوه، كان همَّه الأساسي أن يتأكّد اذا قابلوا رفوفاً كثيرة أم لا؟ وإذا كانت قريبة أم بعيدة، وهل ضُربت من قبل أم انها طارت بعد ان وصلوا إليها؟

عند هذا الحد كان من الممكن ان تنتهي رحلة الصيد. ولو ترك الأمر لأبناء الطيبة او لعساف لاقترح ان يعودوا، وإلى جانب صخرة في الوادي الذي اجتازوه يمكن ان يستريحوا، وأن يأكلوا، وكان من الممكن ان يقال ان هذا الصيد كافٍ، وسوف تنظّم رحلة صيد ثانية، في مرة أخرى. لكن الأمور، أغلب الأحيان، تسير بطريق لا يقدره الانسان ولا يتوقعه. وإذا كان الضيوف هم الذين يحكمون، وهم الذين يقرّرون، فإنَّ أهل الطيبة امتلكوا خلقاً رفيعاً بحيث لا يمكن أن يفصحوا عمَّا يريدونه مباشرة. وعساف

الذي قال مجاملة ولكي يبعد أية امكانية للبقاء:

ـ الصيد انتهى، فمنذ الآن وحتى الغروب، لن نجد رفاً واحداً، وإذا وجدنا أي رف فسوف يطير من مسافة بعيدة، ولا يمكن لأي انسان ان يأخذ منه طيراً واحداً.

وبعد أن تبادل أبناء الطيبة النظر فيما بينهم، ومع عساف، نظروا في وجوه الضيوف، ثم اقترح احدهم اقتراحاً وجد هوى عند الضيوف دون تردُّد:

ـ يمكن ان نذهب الآن حيث يريد عساف، وبعد ان نتغدى ونستريح نقوم بمشوار صغير قبل الغروب، وبعدها نعود إلى الطيبة.

لم تكن الجلسة، في الوادي، تحت ظلال الصخور، مريحة، إذ رغم رطوبة المكان، فقد كانت ريح الصحراء شديدة اللفح والحرارة، وكانت تحمل معها، بين فترة وأخرى، ذرات من الرمال تسفّ وتتكوّم على المنحدرات الواطئة، غير المنتظمة، والتي تشكل مجرى السيول أيام الشتاء.

في هذه الجلسة، والتي شرب خلالها الجميع، وتحدّثوا عن أشياء لا حصر لها، كان عساف في البداية أقرب إلى الصمت. وفي المرات القليلة التي تكلم، تحدّث بشكل غير مفهوم، وكأنَّه يحدّث نفسه. اما عندما سُئل عن الحيوانات التي صادها، وفي أية أماكن، فقد اكتفى بأن يقول:

ـ ما فائدة الحديث عن الأشياء الماضية، ما دام الانسان غير قادر الآن على ان يصطاد أي حيوان؟!

وحين ألحُّوا عليه ان يحدّثهم عن أكثر مرة صاد فيها، وعن عدد الطيور والأرانب التي صادها، قال بحدّة:

ـ لا تنظروا إليّ كوحش، أنا انسان، نعم انسان مثلي مثلكم، وليس بيني وبين أي مخلوق عداء من أي نوع. فإذا كانت الطيور والحيوانات تغريني وأُطاردها، فلأنَّني أشعر بحاجة أكثر مما أشعر بلذة. وحتى لو كانت هناك لذة، فإنَّها لا تصل

بالانسان إلى حدود الابادة والفتك. حتى الذي يرغب بامرأة، ويريد أن يعتصرها بين يديه إلى الأبد، فإنّه غير قادر أن يفعل ذلك بلا حدود. أمّا إذا كان أحمق، وإذا فعل شيئاً لا يناسب الطبيعة البشرية، فلا بدَّ أن ينتهي بشكل ما. وأنا... عساف الذي لا يعرفه أهل الطيبة إلا تائهاً في البراري، ولا يلاحق إلاَّ الطيور والحيوانات، أنا عساف الفهد، لا أرغب في الصيد لمجرد القتل ولا أصيد أكثر ما يجب إلاَّ في الأوقات الضرورية.

كان يريد أن يتحدث أكثر، وبطريقة أفضل، لكنه لم يستطع. أمّا الأفكار التي دارت في رأسه وملأت عقله وهو مستلق على جنبه، وكلبه بقربه، فقد كانت كثيرة إلى درجة لا يستطيع أن يحاصرها، أن يقولها. وحتى لو أراد أن يتكلم فإنَّ كلماته تبدو غامضة فجة وقد لا يفهمها أحد. وحين شرب كأساً جديدة وامتلأ نشوة شعر أنه يستطيع ان يتكلم بشكل أفضل، خاصة وان الآخرين قد تكلموا دون أن يطلب منهم احد ذلك، ودون أن يكون لكلامهم أي معنى او ضرورة. لقد تكلموا بتلك الطريقة الفخمة المليئة بالأكاذيب، والتي لا يتقنها إلاَّ المتعلمون وأبناء المدن. فكَّر أكثر من مرة أن يصرخ، أن يضحك بسخرية، لكنه ابتلع أكثر ما كان يريد أن يقوله، واكتفى بأن ينظر الى الوجوه، وأن يراقب التصرفات.

كان عساف في ذلك اليوم حزيناً إلى درجة لا يتذكر انه حزن بهذا المقدار، وشعر أن ثقلاً أقرب إلى الصخرة يجثم على صدره. وإذا كان قد تعوّد أن يصدر الأوامر الى الصيادين الأغرار، وأن يقودهم في المسارب الضيقة ويتقدّمهم في المعاصي، ليثبت لهم بطريقة ما انهم ما زالوا بحاجة إلى وقت

طويل لكي يتعلموا معنى الصيد، وأن يتصرفوا بطريقة مليئة بالحكمة والذكاء، ويميزوا بين الطيور التي تُصاد وتلك التي يجب أن تُترك لتعيش، إذا كان قد تعوَّد ذلك ومارسه بمكر، ولأسباب غامضة بعض الأحيان، فلقد كان في هذا اليوم أقرب إلى الاستسلام واليأس، وكان مستعداً لأن يفعل ما يريده الآخرون.

لو ان عساف تماسك في لحظة معينة، لو انه رفض بإصرار، مثلما تعوّد، الاستجابة إلى رعونة الشباب وخفتهم، لو ان الحزن فارقه واليأس لم يسيطر عليه، لو ان الخمرة لم تتصاعد أبخرتها القوية الحادة إلى الرؤوس في هذا اليوم الصيفي، لو أنَّ المكان كان غير هذا المكان، لما حصل شيء. لكن قوة خفية، أقرب إلى البلاهة، ولعلَّها حكيمة بمقدار لا يدركه عقل الانسان، هي التي قرَّرت كل شيء!

فقبل أن ينتصف النهار، وبعد ان استراحت القافلة أكثر من ساعتين بدا الزمن لضيوف الطيبة الذين أتوا من المدينة، شيئاً مختلفاً لما يحسّه أهل الطيبة، ولمَن عاش في مثل هذه الأماكن. إذ ما كاد يقترح أحدهم العودة إلى الصيد، حتى استجاب الآخرون بسرعة وسهولة. وكأنَّهم اتفقوا على ذلك من قبل. وعساف الذي نظر إلى أبناء الطيبة نظرة تساؤل، وجد في عيون هؤلاء استسلاماً حائراً، وبدا انهم غير قادرين على اتخاذ أي قرار، وانهم يمثلون دوراً أقرب إلى الحماقة، ويستجيبون لأية رغبة يطلبها هؤلاء الأفندية.

بعد تردُّد لم يطل، نهض عساف وبلهجة مليئة بالسخرية والتحدِّي، قال يخاطب كلبه:

ـ لا يتعلم الانسان إلاَّ بالتجربة، أمَّا الحيوانات فإنَّها تتعلم

أشياء كثيرة ثم تورّثها إلى أولادها وأحفادها، وبهذه الطريقة تدافع عن نفسها وتواصل الحياة. أمَّا الانسان...

وضحك بسخرية، وبلا مناقشات طويلة اختار عساف مكاناً جديداً، قال ليقنع نفسه:

ـ قد لا تكون الطيور هناك مضروبة، وقد نجد بعض الأشواك تستظل بها، ونحن وما قسم لنا!

وبالطريقة نفسها، وبالإصرار نفسه، حين وصل إلى المكان الذي يراه مناسباً للصيد، أوقف السيارة وأنزل كلبه، ثم نزل.

لم يتكلم هذه المرة أية كلمة، لم يكرز بأية موعظة. أمَّا حين قال أحد أبناء الطيبة بصوت عال لينبّه الجميع:

ـ سنلتقي هنا بعد ساعة وأقصى حد ساعتين، لأنَّ الطريق إلى الطيبة طويل، ويجب أن نصل مبكرين.

حين قال الرجل هذه الكلمات، هزَّ عساف رأسه دلالة الموافقة، ولوَّح بيده بطريقة دائرية، وقد فُهمت تلك الحركة على أنَّه سيبقى في منتصف الدائرة، وفهمت على أنَّها تحية.

الشمس تنزلق من السماء مثل رصاص مصهور، والرمل أكثر سخونة من الجمر، حتَّى الكلب وهو ينقل أقدامه تصدر عنه أصوات ضعيفة أقرب إلى الاستغاثة أو الاحتجاج، أو كأنّه يمشي على أشواك حادة او زجاج مكسور. وحين أقلعت السيارتان بسرعة خلفتا وراءهما سحابة كبيرة من الغبار، لفَّت عساف فبدا جزءاً من الصحراء الممتدة بلا انتهاء. أمَّا الكلب فقد عوى احتجاجاً وركض لمسافة وراء احدى السيارتين، ثم عاد ببطء.

وإذا كانت الطبيعة بجبروتها غير المحدود، في البحار والمحيطات، على قمم الجبال وفي أعماق الأودية، في الأصقاع المتجمدة وفي ظلمة الغابات، اذا كانت الطبيعة في كل هذه الأماكن تنذر بالتحول وتبعث باشارات من نوع ما، بأن ذلك العنفوان الداخلي لم يعد يقوى على الاحتمال وسوف يقلب جلده في اللحظة التالية، فالصحراء الغامضة القاسية الموحشة المفاجئة تتجاوز قوانين الطبيعة لتثبت هذه القوانين. فلم تمض ساعة حتى جُنَّت الدنيا: هبَّت ريح قوية عاصفة غيَّرت كل شيء. كانت الزوابع تدفع الكثبان الرملية وتسفّها كما تفعل الرياح بالأمواج، فتتدحرج الرمال بسرعة كما لو انها كتل من القطن الهش او بقايا أوراق محترقة، حتى ان الانسان ما ان يستدير

قليلاً ليتَّقي هذا الجنون المفاجىء حتى يمتلىء حلقه وتمتلىء عيناه بذلك الجمر الصغير الناعم وكأنَّه سقط من نار لا تعرف التوقف او الانطفاء.

ان ما حصل في ذلك اليوم الصيفي، في أعماق الصحراء، وعلى مسافة غير قصيرة من الطيبة، لا يمكن ان يستعيده أحد دون أن يبكي، فالخوف الذي ملأ الدنيا خلال تلك الساعات كان من القوة والذهول الى درجة ان لا أحد يستطيع ان يتذكر ما حصل. حتى الكلمات تبدو باهتة عاجزة، ولا تعبِّر عن أي شيء. وأبناء الطيبة الذين كانوا يعرفون بغريزتهم طبيعة الصحراء وقسوتها، من رائحة الهواء، من لمعان السماء القاسي، من الزوابع التي تجاوزت الوادي وعبرت السهل كله حتى وصلت إلى الطيبة... ان هؤلاء لم يصدقوا الهول الذي يرونه أمام عيونهم. إنَّه شيء لم يشهدوا مثله طيلة حياتهم. والضيوف الذين أصابهم الهلع، والذين فقدوا القدرة على التصرُّف، تحولوا إلى مجموعة من الدمى المتوسلة الباكية. كانوا يريدون شيئاً واحداً: أن لا يموتوا!

وفي غمرة الخوف يفقد البشر القدرة على التصرُّف، فبدل ان يوقفوا السيارات وينتظروا، كانت العواصف الرملية القاسية هي التي تحرّكهم، هي التي تقودهم. وفي المرات القليلة التي توقفوا وجاءت الزوابع حاملة الرمال الساخنة، صرخوا برعب، وشعروا بالموت يطبق على رقابهم. ودون انتظار وبدوافع غريزية حاولوا الهرب. واذا كانت الجيب قد ظلت محتفظة بقوتها وقدرتها على السيطرة، فإنَّ السيارة الأخرى بدت مثل سلحفاة ضالة لا تعرف إلى أين تذهب أو متى تموت. وحين قال أحد أبناء الطيبة بأنَّ الأمر أصبح خطيراً إلى درجة تتطلب بقاء السيارتين معاً، فقد شعر

الجميع بنوع من الراحة. ولم يكتف سائق الفولكس فاكن بأن يبقى قريباً، بل أصرَّ على أن يمشي قبل الجيب، وعلى مسافة أمتار قليلة منها.

انتظار الموت في هذه الصحراء أصعب من الموت آلاف المرات. فالموت هنا لا يأتي فجأة، لا يأتي متنكراً، ولا يأتي بسرعة ويقضي على كل شيء، وإنَّما يكشر عن أنيابه في البداية ثم يقف على شبابيك السيارات، وبين لحظة وأخرى يعربد، يصرخ، يلطم الوجوه، يسف حفنة من الرمال في الأفواه والعيون. وبعد أن يمل من هذا المزاح يتراجع قليلاً، ليقعي مثل ذئب، انتظاراً لجولة أخرى. والجولة الأخرى لا تنتظر طويلاً، اذ تصعد مثل البخار مسرعة جارفة قوية، فتولد يبوسة في الحلوق، هلعاً في العيون، انتظاراً آخر قاسياً ممضاً، بالخشونة الكاوية نفسها، بالجبروت نفسه الذي لا يعرف التراجع، يدق الشبابيك مرة أخرى دقات قوية متواصلة.

وبين انتظار وانتظار يموت الانسان، يموت الف مرة، يفقد الثقة، تتلاشى ارادته، يسقط، ينهض، يترنح، يمتلىء حلقه بأدعية خائفة لا يعرف كيف أتت، يصرخ دون صوت، ينظر في وجوه الآخرين ليرى وجهه، يتذكّر، يقاوم، ينهار، يسقط. يموت مرة أخرى، ينهض من الموت، يتأمل الأمتار القليلة التي يمكن ان تُرى عبر الشبابيك، يلامس حبات الرمل المتسربة في كل مكان، يملأ حلقه بجرعة ماء ويستبقيها لأطول فترة لعلّها تمدّه بمزيد من القوة على المقاومة، على الصمود، يفقد القدرة على الحديث، يفقد القدرة على ابتلاع الماء، يتحوّل الماء إلى ملح، يتحول الزبد الى زبد، يريد ان يصرخ، ان يموت تماماً، يريد أن تنشقّ

الأرض فجأة وتبتلعه، يريد ماءً، ظلاً، وينتظر!

حتى الزمن في الصحراء يكتسب معنى آخر، يتحوّل إلى ذرات صغيرة، الثانية، والدقيقة هي كل الزمن. ثم يبدأ ذلك الزمن بالتفتت إلى ما لا نهاية، كالصحراء بلا نهاية، ويطبق كالخيط المبلول القاسي، يشدّ دون توقف على الرقبة، يحزّها لكن دون أن يقطعها أو أن يبقيها، ويظل هكذا موتاً مؤكّداً منتظراً ساخراً مؤجّلاً، فيحس الانسان بالاختناق، وتتصاعد ضربات القلب، وترتفع درجات الحرارة، ويتحوّل لون الوجوه إلى الزرقة، ولا يستطيع الواحد ان ينظر الى الآخر خوف الانفجار او العويل.

والحرارة المنبعثة من الأرض أو المنزلقة من شمس السماء المتوحشة لا تترك للإنسان لحظة من التوازن والتفكير. فالظلمة حين تطبق تجعل الإنسان يحس بضآلةٍ متناهية، ويتضاعف رعبه مئات المرات.

فبعد انتظار طويل طويل، لعل الريح تهدأ وتصبح الرؤية ممكنة، بدت الشمس تميل نحو الغروب، لم يرها أحد تفعل ذلك، لم يرها أحد تنزلق مثلما تفعل في البحر، لكن من النور الباهت المتداخل مع ذرات الرمال، من ذلك الانكسار التدريجي في الحرارة، يتولّد شعور ان الشمس أخذت هذا السمت بعد ان ظلّت مثل حبل المشنقة فوق الرؤوس طوال ساعات النهار.

أي حوار في مثل هذه اللحظات مستحيل، لأن الصراعات داخل قلب كل انسان كانت من الكثافة والتناقض الى درجة يمكن ان تولد الشيء ونقيضه، وتدفع الانسان لأن يفعل الشيء ونقيضه. فالحرارة المنبعثة من الشمس، والتي كانت أشد الأعداء، بدت

حنوناً مضيئة حين أخذت الشمس ذلك الميل منذرة بالانتهاء. أمّا النور الوهاج الذي كان ينفجر من كل الأشياء خلال ساعات النهار كلها، فقد أصبح حلماً ضائعاً والظلمة تطبق تدريجياً. والرياح التي كانت تحدّد الاتجاهات، ويمكن أن تقود الانسان إلى مكان معين، تحوّلت في ظلمة المساء الأولى إلى عويل ولطمات عمياء.

انه الموت ولا شيء غيره، هكذا قال كل واحد في نفسه. والانسان في لحظات اليأس المطلقة حين يوافق على كل شيء، حتى على الموت، فإنّه يريده صاعقاً كاملاً نهائياً، اما ذلك العري الحاد الفاضح في كل شيء، الدمار الذي يفتّت الخلايا بقسوة تشبه النهش، فإنّ هذا النوع من الموت لا تمتلكه سوى الصحراء في الليل، وفي فيضان الرياح الذي لا يعرف التوقّف او الراحة.

هذا هو الانسان، ذلك المخلوق الضئيل المتلاشي، في مواجهة قوة غاشمة لا تدمره ولا تتركه!

قال احد أبناء الطيبة بصوت مخنوق:

ـ الله يساعدك يا عساف.

قال الذي جلس إلى جانب السائق مكان عساف:

ـ صحيح، أين عساف؟

وغاصت الكلمات في الأفواه مرة أخرى وخيّم الصمت، لكنه ذلك الصمت المدوي الذي ينفجر في كل لحظة، في كل شيء، والذي تسمع ولولته في كل الخلايا.

في وقت ما، ولا أحد يمكن أن يحدّد متى كان ذلك الوقت، وكم من الزمن قد مرَّ، بدأت الريح تتراجع، وبدأ عصف الرمال

يخف شيئاً فشيئاً، وان ظلَّت السماء مكتنزة بذلك السواد الثقيل القاهر، وحين بدأ سائق السيارة الجيب يشعل الأضواء ويطفئها، فقد بدت حركة ذكية مليئة بالمعاني. قال الجالس الى جانبه:

ـ لا بدَّ ان يرانا أحد ويأتي لإنقاذنا!

قال ابن الطيبة الذي يجلس في المقعد الخلفي وراء السائق:

ـ يجب ان تشغل السيارة وتدور عدة مرات لعلَّ عساف يرانا أو نراه فنذهب اليه أو يأتي إلينا!

دون مناقشة ودون تساؤل، بدأت السيارة تدور مثل حيوان مربوط. وبين لحظة وأخرى، كان السائق يشعل النور ويطفئه، لعلَّ شيئاً يحصل وتكون فيه النجاة.

قال ابن الطيبة:

ـ اذا وجدنا عساف يمكن ان ينقذنا ونعود إلى الطيبة بسهولة، اما اذا لم نجده...

وسكت. تطلعت اليه العيون دون ان تراه. واذا كانت الظلمة قد خلقت خوفاً من نوع جديد، واذا كان الشعور بالنجاة بدا مثل خفقات قلب مريض، فإنَّ هذه الكلمات انفجرت داخل السيارة وكأنَّها نهاية كل شيء!

يقول الذين وصلوا عصر اليوم التالي في ثلاث سيارات، إحداها لسلاح البادية، وعثروا على السيارتين، انهم وجدوا أغلب الرجال بين الحياة والموت. كان عدد منهم فاقداً الوعي، وكان الآخرون في حالة من الاعياء الشديد. أمّا سيارة الفولكس ڤاكن فقد انغرزت اطاراتها الخلفية في الرمال وأصبحت في حالة من الانهاك إلى درجة انها لم تعد قادرة على الحركة، ووجدوا الحبل الذي حاولت الجيب استعماله لسحبها قد تقطّع في عدة مواضع، أمّا كمية المياه التي كانت في السيارتين فقد نفدت تماماً، ولم تبقَ إلاّ أوان فارغة يخشّ فيها الرمل، ويقول هؤلاء انهم لو تأخروا ساعة أو أقل لمات جميع مَن كان في السيارتين. أمّا حين بدأوا يرشّون على وجوه الرجال الماء، وبدأوا يكلمونهم، فلم يستطع أي من الرجال السبعة أن يتكلم كلاماً واضحاً، كانت غمغمات أقرب إلى أصوات الحيوانات. ولقد بكى اثنان من الرجال السبعة، احدهما من أبناء الطيبة، ولم تعرف ابداً أسباب ذلك البكاء، وهل كانت تعبيراً عن فرح أو عن شيء آخر!

وبعد بضع دقائق، ورغم الالحاح في السؤال عن عساف، لم يستطع أحد أن يجيب.

لكن قائد الرجال الذين كانوا في السيارة العسكرية قال بلهجة لا تقبل المناقشة:

ـ ابقوا في أماكنكم، لا تتحركوا ابداً، وسوف نجد عساف.

قال أحد رجال البادية وكأنَّه يطمئن الجميع:

ـ لا بدَّ أن يكون قريباً، وسنجده!

وبخفة متناهية قفز إلى البيك آب، دون أن يحس أحد، مختار المنطقة الشرقية، وأخذ مكاناً حصيناً قريباً من القمرة، وأمسك بالحديد الأمامي بقوة.

كانت الصحراء الممتدة بصفرتها المائلة إلى زرقة مثل حلقة لا أفق لها ولا نهاية. وحين انطلقت السيارة بدوي مفاجىء صرخ الذي بكى من الضيوف، وركض وراءها، ثم سقط على الأرض وأخذ بالعويل، وحتى حين حُمل وأعيد إلى السيارة وأعطي قطرات من الماء، ظلَّت دموعه تتساقط دون توقف، ثم غطَّى وجهه بيديه وأجهش، وظلَّ كذلك فترة طويلة.

كان الحشد الكبير ينتظر، وكان الأمل لا يزال قوياً في العثور على عساف. وإذا كان الصمت، في حالات كثيرة، أفضل وسيلة للتعبير، فقد ظلَّت أسئلة الرجال الذين جاءوا من الطيبة بلا اجابة، وان كانت اجابتها واضحة قوية في الوجوه، في الحركات، في الشفاه المتشقّقة المفطورة. أمَّا حين سقطت بعض الدموع فقد كفَّ الجميع عن الكلام. وانشدّت العيون الى كل الاتجاهات لعلَّها ترى بشراً او زوالاً، وكان أمل واحد، مثل نسمة باردة، يخفق في كل صدر، وارتفعت ابتهالات لا تخطر على بال ولا نهاية لها، وكانت أقرب إلى التمتمة وتشبه الدعاء، ان يكون عساف حياً وأن يجدوه.

لقد انبثقت في تلك اللحظات آلاف الصور في أذهان

الرجال الذين ينتظرون. وتلك الصور، وان بدت متداخلة مضطربة، وأقرب إلى الحلم، فإنَّ صورة عساف كانت أشدها وضوحاً وأكثرها بياضاً: حين كان يعود بعشرات الطيور ويوزّعها بمهارة لا تخطىء. حين كان يمزّق بعض المواضع من أحذيته وثيابه. حين كان يجمع الخرطوش الفارغ من الصيادين الأغرار ويتأمله بعناية ثم يحضره بعناية أكثر ليستعمله في اليوم التالي ويتأكّد بنفسه من قوته. ثم لمّا تخلّى نهائياً عن الخرطوش المصنوع من الورق المقوى واستعاض عنه بخرطوش النحاس، وكيف كان يحتفظ ببعض هذه الخراطيش في جيب جلدي صغير لصقه على صدره، كيف كانت الطلقات تبدو شديدة اللمعان ولا يستعملها، كما يقول ويؤكّد، إلاّ «لقتل الوحوش» ـ ان هذه الصور، وعشرات غيرها، تمرّ في هذه اللحظات مثل شريط طويل، وكل انسان متأكّد أنَّ عساف ستنشقّ عنه الأرض وينفجر فجأة كما تنفجر الطلقة. وأهل الطيبة الذين تعوَّدوا على عساف وغياباته التي قد تطول يومين أو ثلاثة، حين تحاصره الثلوج أو يفيض الوادي، إذا كانوا قد تعوَّدوا عليه وألفوا كل شيء يصدر عنه، فقد كانوا متأكّدين تماماً من شيء واحد: سينفجر عساف بينهم، وان السيارة حين تعود يائسة مثقلة بالخيبة والحزن ستجده وسط المجموعة، يتحدّث بتلك الطريقة المبهمة، الحافلة بالأصوات غير المفهومة، عن رياح البارحة وعن جنون الطبيعة وغدر الصحراء، ويجب أن يضيف في النهاية: الانسان أقوى من الطبيعة، ويعرف كيف يروّضها أو يحتال عليها!

كانت الأفكار والصور تتلاحق، وكانت النسمات الطرية التي بدأت تهب مع ميلان الشمس نحو الغروب تولد أملاً يقوى

كل لحظة، وتولد يأساً يقوى كل لحظة، وفي خضم الأفكار والصور، ومع كل نسمة جديدة كانت العيون تدور، والصمت يقوى، إلى أن جاءت تلك الصرخة المفاجئة المدوية:

ـ هذه هي السيارة!

لحظات قاسية من التوتر أقسى من أية لحظات أخرى وأشد عذاباً من عمر بأكمله. لم يبقَ أحد في مكانه، حتى أولئك الرجال المتعبون، والذين لفَّت على رؤوسهم الخرق المبللة، شعروا بنوع من التحدِّي والقوة، فمَن لم يستطع النهوض والركض مع الآخرين تجاه السيارة، تحرَّك في مكانه أو غيَّر جلسته ليشهد عساف وهو ينزل.

كانت وجوه الرجال وهي تطل من فوق شديدة القسوة والصراحة، وللحظات والسيارة تقترب ثم تتوقف، تأكَّد الجميع انهم لم يجدوا عساف. لقد غمرته الرمال وابتلعته الأرض ولم يبقَ منه أثر، لكن فجأة، والمختار يمسك الحديد الأمامي، ويهزه بعصبية أول الأمر، ثم يصرخ ويشير إلى الخلف.

ترك الرجال يستديرون حول السيارة. التفت بصلابة وبطء، حتى إذا نظروا ورأوا عساف هكذا، صرخ، كان صراخه أقرب إلى الشتيمة:

ـ راح عساف... ونحن الذين قتلناه. راح الغالي.

كان منظراً مفجعاً مليئاً بكآبة خرساء وأقرب إلى عدم التصديق.

كان عساف في قاع البيك آب، كان هناك، كان يابساً متخشباً وقد تقلَّصت عضلات وجهه وبدت على أطراف الشفتين

ابتسامة هي مزيج من الألم واليأس والسخرية، وبدا كأنَّه يريد أن يتكلم! وحين استمر المختار في الهياج ثم البكاء، واتضحت الصورة حادة نازفة متجبرة، سمعت أصوات نشيج مكتوم، وتساقطت الدموع. كان لسقوط الدموع رنين قوي موجع وكأنَّه نهاية لفترة طويلة من الزمان!

•

كيف يمكن للبشر أن يصمتوا بهذا المقدار ولهذه الفترة الطويلة؟ كيف يستطيعون نسيان جميع الكلمات والأصوات التي بدأوا الحياة بها وهم ينقذفون من الأرحام.

كيف، كيف يمكن ذلك؟

طوال الطريق الذي استمر أكثر من ساعتين، ظلُّوا صامتين!

والمختار الذي ظلَّ واقفاً في مكانه، قابضاً بقوة على حديد القمرة، وناظراً إلى الأمام باستمرار، طلب من قائد السيارة العسكرية التابعة لقوة البادية، بكلمات متلجلجة، لكن واضحة أيضاً، أن يذهب الجميع إلى بيته. حصل ذلك حين توقَّفت السيارة في مدخل الطيبة، وحين بدت جموع الناس وهي تنتظر، وتحاول أن تعرف أي شيء حصل.

قال المختار، في الظلمة التي تخيّم على كل شيء، ولا يستطيع الانسان أن يميِّز الآخرين إلاَّ من أصواتهم:

ـ تعالوا إلى بيتي، هنالك سوف نلتقي.

وبطريقة خفية حافلة بالحنان والعذوبة والخوف والتقديس، حُملت جثة عساف إلى الداخل. وُضعت في صدر المضافة، ووضع إلى جانب الرأس فانوس، وقريباً من يده اليمنى وضعت البندقية، وبحركات آلية، كأنَّها رُتِّبت منذ وقت طويل، وبعد ان

تمَّ ذلك بهدوء واتقان، طلب المختار من الجمع أن يجلسوا.

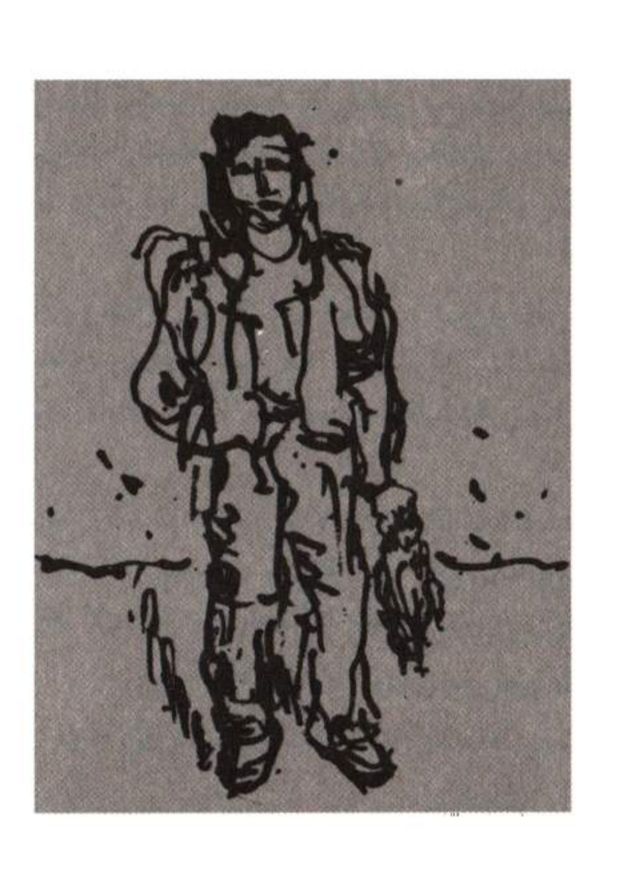
الصمت، الصمت، ولا شيء غير الصمت، وما عدا النظرة الثقيلة الحافلة بالحزن، والمرتسمة على تلك الوجوه الملهوفة المتسائلة، فإنَّ الطيبة من أعجب الأماكن وأكثرها غرابة، لا تستطيع أن تفضح عواطفها بسهولة، وحتى لو أرادت أن تقول شيئاً فإنّها كثيراً ما تقول ذلك الشيء بطريقتها الخاصة، والتي قد لا تبدو مألوفة أو مفهومة!

لم يتجرأ أحد أن يسأل المختار، أمّا رجال البادية الذين ساعدوا في حمل الجثة، فقد قال العريف الذي يقودهم:

ـ سوف نذهب ونجهز التقرير لرفعه غداً صباحاً.

ودون انتظار تحرَّكت السيارة، وغادرت المكان!

والمختار الذي كان بادي العصبية، ومحمرّ العينين، والذي كان يتحرَّك بعض الأحيان حركات طائشة لا تعني شيئاً، فقد كان يقاوم في نفسه ذلك الكابوس الذي لا يطيق أن يحتفظ به ولا يقوى أن يعبِّر عنه. وهو إذ كان قد برع في كل الأوقات على أن يدير الحديث، وأن يتكلم بطريقة لا يحسنها غيره في الطيبة، والذي كان يوصف بأنّه قادر على أن يرشّ على الموت سكراً، ويقدم أصعب الأمور وأكثرها مشقة، بأيسر الوسائل وأكثرها قبولاً، بدا تائهاً ضائعاً خائفاً، وبدا شديد العصبية بحركات يديه ووجهه. أمّا حين انتظم مجلس الطيبة، كما لم يحصل ذلك من قبل، ووسط الصمت القاسي الذي خيَّم على كل شيء، انفجر صوت المختار، دون أن يطلب إليه أحد، ودون مقدّمات من أي نوع:



ـ هذا عساف... انه أمامكم، انظروا اليه.

وهزَّ رأسه بلوعة، دون أن يلتفت، ثم تابع بلهجة يخنقها البكاء:

ـ عساف الحصان، عساف الغيمة، أبو الفقراء، الذي لا ينام ساعة في الليل من أجل أن تعيش الطيبة وتبقى... عساف الذي يحب الجميع، ويقتل نفسه حتى يستمرّ الناس... عساف زينة الرجال، ترككم الآن، ترككم وحيدين تحاربون الحكومة والعسكر والجراد، ولا أحد يعرف أية قوى أخرى، وماذا سيحصل!

كاد أن يواصل، خاصة وان كلماته نزلت إلى قلوب الرجال وكأنَّها السكاكين الملتهبة، فحركت الرؤوس ودفعت حبات من الدموع لكي تتساقط بصمت، لكن فجأة تغيّرت أفكاره واضطربت:

ـ ما فائدة الكلمات الآن؟ يمكن أن نكرز من هذه اللحظة وحتى يوم القيامة، لكن كل يوم يسقط منا الرجال، وتسقط البيوت فوق رؤوسنا وتقطع الأشجار بأيدينا، ولا يتغيّر شيء!

قال رجل مسنّ يريد أن يغيّر الموضوع:

ـ حتى هذه الساعة لا أصدّق أن الرجل مات.

قال المختار:

ـ انتظر، وسوف ترانا، واحداً بعد آخر، نهوي على وجوهنا وتطمرنا الرمال، وقد لا نجد مَن ينقّط في حلوقنا قطرة ماء.

وقهقه المختار بطريقة تختلط فيها السخرية بالنشيج، وبالحزن الكاوي، ثم أضاف:

ـ تماماً كما حصل مع هذا الحصان!

قال رجل وهو يصوِّب عينيه إلى عساف ولا يرفعهما:

ـ لكن كيف مات؟ كيف حصل ما حصل؟

قال المختار وهو يغيِّر جلسته، لأن الموضوع يحتاج إلى بعض الحركات والاشارات، ولكي يخلق في نفوس الناس التأثير المناسب:

ـ اسمعوا، كدنا نعود، يئسنا من البحث، درنا في كل مكان، بحثنا في كل الأمكنة التي تصوّرنا أنَّ عساف ذهب اليها، خاصة وان السيارات لم تذهب بعيداً، ومقبل، الذي يعرف الصحراء شبراً شبراً، قال ان هذه هي أماكن الصيد، وعساف باعتباره صياداً يعرف أين يذهب، ولا يمكن ان يذهب أبعد من ذلك. بحثنا، بحثنا، وقائد البادية، وقف أكثر من مرة على ظهر قمرة السيارة وتطلع في كل الاتجاهات مستعملاً ذلك المنظار الذي يرى الابرة من مسافة طويلة، لكن لا شيء. ومقبل، الذي يملك عيون صقر، تطلع في كل الاتجاهات، ولكن لا شيء. كدنا نعود. كنا متأكّدين ان عساف دُفن تحت الرمال ولا يمكن لأحد أن يراه. لكن فجأة بدأ مقبل يخبط قمرة السيارة بقوة.

توقَّفت السيارة، نزل القائد، ونزل السائق، ومقبل ظلَّ ينظر باتجاه معين. بدا متردّداً أوّل الأمر، لكن فجأة صرخ:

ـ يجب ان نتجه إلى الناحية اليسرى، لأنَّني أرى نسراً، لست متأكّداً تماما، ولكن رأيت نسراً يحوم، وما دام هذا الطير يعلو وينقضّ بهذه الطريقة فلا بدَّ ان هناك شيئاً!

وقبل ان يكمل مقبل كلامه وضع القائد المنظار المقرّب

على عينيه، حيث أشار مقبل، وهزَّ رأسه دلالة الشك أوّل الأمر، ثم بدا متأكّداً، وبسرعة طلب من السائق ان يتوجه ناحية اليسار.

لمسافة كبيرة بدت الأرض مثل راحة الكف، لا شيء أبداً. والنسر الذي لم يكن يرى أوّل الأمر، بدا مثل نقطة سوداء في الفضاء البعيد، كان يصعد ويهبط. وحين رأيناه أوّل مرة، غاب ثانية. تصوّرنا الأمر كله وهماً، وان مقبل لم يرَ شيئاً، لكن والسيارة تتجه حيث يريد، والسكون يخيِّم على كل شيء، والأرض خاوية لا تظهر شيئاً أبداً، بدا على مسافة بعيدة زوال. قال مقبل بتأكُّد جازم:

ـ «هذا النسر حطَّ على شيء، ويجب أن نصله لنتأكّد!».

وأسرعت السيارة، وتعلَّقت عيوننا حيث يشير مقبل، وفي كل دقيقة نقترب أكثر فأكثر حتى تأكّدنا من وجود النسر. كان من مسافة بعيدة يبدو جالساً مثل رجل. كان بسواده القاتم شديد الوضوح، وترتفع قامته شيئاً فشيئاً ما دمنا نقترب. وحين أصبحت المسافة بيننا لا تزيد على مئات الأمتار طار. بدا ضخماً مهولاً، وبان البياض في لونه الى جانب السواد.

ومع كل خطوة تقتربها السيارة، حيث كان يربض النسر، بدت لنا الصورة اكثر وضوحاً وقسوة مما كنا نتصور.

كان عساف مدفوناً في الرمل، لم يكن يظهر إلاّ رأسه، وفوق الرأس تماماً كان الكلب رابضاً، وكان الجزء الأكبر من جسد الكلب مدفوناً بالرمل أيضاً، لكن بطريقة غريبة للغاية: كان يشكل سياجاً حول جسد عساف، خاصة رأسه. كان يحتضنه.

ولما وصلنا رأينا كل شيء واضحاً.

قال مقبل بثقة:

ـ عساف مات قبل الكلب، ولا بدَّ أن بعض الطيور، ربما هذا النسر او غيره، أحسَّت وعرفت بذلك، وجاءت لتأخذ نصيبها منه، لكن الكلب، وفي محاولة لحماية عساف صارعها حتى صرعته. انظروا إلى الدماء المتجمدة فوق رأس الكلب، لقد مزَّقته بمناقيرها لتصل إلى عساف، وفيما هو يدافع عن نفسه، وعن عساف، تهشَّم، ولا بد أن يكون قد مات من العطش او من النهش».

قال مقبل ذلك وامتدَّت يده إلى الرمال تزيحها وتسحب جثة عساف. الجثة مدفونة بالرمل تماماً. المطرة فارغة، وعساف يقبض على البندقية بقوة، ولا بدَّ ان يكون قد قام وسقط عدة مرات، لأنَّ يده اليسرى ملتوية ومزرقّة. ومن حسن حظه انه سقط على وجهه، لو كان في وضع آخر لأكل النسر عينيه وهشَّم وجهه، والكلب حين رأى عساف يسقط نام فوقه: لا بدَّ انه حاول انقاذه بشكل أو بآخر، لكن العاصفة كانت أقوى من الاثنين!

بهذه الطريقة انتهى عساف.

سكت المختار، وضع يديه تحت صدغيه، كأنّه يحاول ان يمنع رأسه من السقوط او كأنّه يتذكر. وخيّم صمت ثقيل. وبصوت مختلف تماماً، صوت من عالم آخر، أضاف:

ـ كان بودّي لو حملنا الكلب معنا، كان يستحق ذلك، لكن لم اجرؤ على طرح الفكرة، بدت لي لا تناسب الموقف ولا يمكن أن يفهمها أحد. أمّا حين حملنا الجثة ووضعناها في البيك آب، فقد ظللت على الأرض لبعض الوقت، وكنت أنظر إلى الكلب. لم أستطع ان أرفع نظري عنه، لكن قائد السيارة العسكرية، قال بصوت عصبي، وان كان فيه بعض القسوة: «لم تنته مهمتنا بعد، علينا ان نصل إلى الجماعة...». ولما صعدت إلى السيارة ومررت إلى جانب الجثة، نظرت اليها بإمعان، بدا لي وجهه شديد الحزن، ولا أعرف كيف سمعت صوت عساف، سمعته يقول: «والكلب... هل تتركون الكلب؟» وبسرعة، وبخوف اقتربت من الجنديين اللذين كانا في مقدمة السيارة، ولم أستطع أن أنظر بعد ذلك إلى الخلف. كنت خائفاً، كنت خائفاً تماماً من ان أرى عساف، أو أن أسمع كلماته، وسيطر عليّ الخوف أكثر عندما مالت الشمس إلى المغيب وتصوّرت الذين ينتظرون، وتصوّرت الطيبة والبشر ولا أعرف أية أحزان أخرى».

قال احد المسنّين، وقد بدت في لهجته رنّة حزن لم يتعوّدها الكثيرون:

ـ كان من الواجب ان تهيلوا عليه التراب لكي لا تأكله الطيور!

رد المختار بعصبية:

ـ كان الواجب ان نأتي به.

قال الرجل المسن:

ـ لا يمكن ان تحمل الحيوانات حين تموت، لكن الأكرم لها ان يُهال عليها التراب.

هزَّ المختار رأسه وقد بدت عليه علائم الحزن الشديد والندم، ولم يتكلم.

قال صاحب الفرن:

ـ أعجب شيء في هذه الدنيا العلاقة بين الانسان وما حوله من أشياء، من حيوانات وأشجار وبيوت وأنهار، حتى الصحراء التي لا تبعد كثيراً عن الطيبة يتعلّق بها الانسان في حالات كثيرة، لأنَّ فيها نجاته، ولولا ذلك لما ذهب عساف الى هناك. كان يريد أن يخلص الطيبة، ويخلّصني أنا بالذات، لأنَّ الأرغفة القليلة التي أصبحت تخرج من الفرن لم تعد تكفي احداً.

قال رجل ظلَّ صامتاً، لكن دمعة سقطت حين بدأ يتكلم:

ـ في الطيبة، كما في أي مكان آخر من هذا العالم، ما يحتاج إلى تغيير هو الانسان.

وصمت لحظة، جفَّف دموعه التي كانت تتساقط دون ارادة على خدّيه وأضاف:

ـ لو اننا فهمنا ما كان عساف يقوله لكانت حالنا الآن أفضل.

قال أحد المسنّين:

ـ لقد رحل عساف، ذهب ولن يعود.

توقّف قليلاً، ابتسم بحزن وكاد أن يتابع، لكن واحداً آخر قال بعصبية:

ـ أغلب الأحيان تأتي الأشياء متأخرة!

قال شاب صغير لم يفطن أحد لوجوده طيلة الوقت:

ـ اذا ظلّت الطيبة تنتظر المطر، ولا تفعل شيئاً سوى انتظار المطر، فسوف يموت الجميع كما مات عساف، وربما أسوأ!

قال المختار:

ـ أكبر ظلم لعساف أنّنا تركناه يحارب وحده، حتى الكلب كان أحسن منا، لقد حاول انقاذه، ونحن لم نفعل.

قال أحد الرجال:

ـ والله الأكثر ظلماً أن نترك البشر، أمّا الكلب فانظروا، هذه هي الدنيا! وتنهّد بحزن ثم أضاف:

ـ كنت أعرف أنَّ عساف يريد ان يموت، وانه سيقتل نفسه بشكل ما، اذا لم يكن في هذه الرحلة ففي رحلة غيرها، إذا لم يكن في الصحراء فتحت أكوام الثلج، وأنتم تتذكرون حياته كلها، تذكرون كم مرة ضاع وكم مرة بحثنا عنه.

كان يريد أن يواصل الحديث، لكن أحد المسنّين قال فجأة:

ـ يستغرب الانسان انه في حالات كثيرة لا يمكن التفريق بين الحيوانات والبشر. وربما كانت الحيوانات أفضل من بشر كثيرين. لكنّني منذ جاء هذا الكلب الى الطيبة تشاءمت وقلت لا بدَّ أن يقتل هذا الكلب.

قال المختار بحدة:

ـ الكلب لم يقتل عساف، نحن الذين قتلناه.

ـ لا يهم مَن قتل الآخر، المهم الآن ان عساف، الذي يرقد هنا، لا يسمع ولا يحس بوجودنا.

ـ قال المختار بحدة:

ـ لا، انه يسمع، نعم انه يسمع كل شيء، ويفهم كل ما يُقال!

قال أحد المسنّين:

ـ يا أبناء الطيبة، لا تكونوا حمقى أكثر مما يجب. الرجل انتهى الآن، ولا يمكن لأية قوة على الأرض أن تعيده، وليس غير الله قادراً على ذلك، وإذا أردتم أن تكرموا عساف فدعوه نائماً بسلام، واسهروا حتى الصباح، ومع اول أضواء الفجر نحمله الى الأرض لنعيده اليها.

وبطريقة أقرب إلى الغموض والتحدي بدأت السهرة. بدأت بنوع من التكريم الذي لم تتعوده الطيبة من قبل، ربما نتيجة للخوف او لبقايا قناعات ومواقف تجاه الموت. ورغم ان شعوراً بالرهبة خيَّم على الجميع، وان عدداً من الناس، بمَن فيهم الضيوف، كان يتمنّى لو ان الأمر لم يأخذ هذا الشكل، لكن ازاء اصرار مبهم، وبلحظة من لحظات الانفعال الشديد، قال المختار بعصبية:

ـ يجب أن تبقى معنا يا عساف لتشهد كل شيء.

وأدار رأسه، وعيناه مغمضتان، ويداه ترتفعان بطريقة تحمل معاني لا حصر لها، وتابع كأنَّه يخاطب نفسه:

ـ أنت لم تمت، يا عساف، وستبقى معنا.

قال رجل من مكان بعيد:

ـ الحياة والموت بمشيئة الله يا جماعة، والآن انتهى كل شيء!

قال شاب بعصبية:

ـ عساف لن يموت، وهو الآن أكثر حياة منا جميعاً!

قال رجل مسن:

ـ لا تكفر يا ولدي، ان الملائكة ترفرف فوقنا الآن.

قال ابو زكور، الذي يبني كل شيء في الطيبة، حتى القبور، وبدا كلامه مليئاً بالذكاء والمكر، لكي يخرج الخوف من القلوب:

ـ يا جماعة، الصباح لا يزال بعيداً، وعلينا واجب ثقيل غداً، فإمّا ان تقرأوا القرآن وتتحدثوا، او ليذهب كل واحد إلى بيته ونعود في الصباح.

قال المختار بعصبية:

ـ مَن يريد الذهاب، فالباب مفتوح.

ونظر في وجوه الناس ليرى وقع كلماته وتابع:

ـ اما أنا فلن أنام لحظة واحدة، وسوف أسهر في هذه الغرفة، إلى جانب الرجل، حتى يطلع النور ونحمله إلى قبره!

وبهذه الطريقة العجيبة بدأت سهرة من نوع لم تألفه الطيبة قط. تحدَّث أكثر الموجودين، تحدّثوا عن أشياء كثيرة، حتى الضيوف رووا قصصاً لم يفهمها أهل الطيبة جيداً.

في تلك السهرة قيلت أشياء وأشياء، وعساف مسجّى ووجهه مكشوف، والضوء يتراقص على وجهه وعلى وجوه الآخرين فيخلق جواً من الغرابة والخوف، والجنون أيضاً، والناس لا يريدون ان يتوقفوا لحظة واحدة.

وإذا كانت هذه الأحاديث قد توالت دون منطق، وربما دون ضرورة واضحة، ودون مغزى أيضاً، فقد كانت الرغبة تسيطر على الجميع، ان يقاوموا الصمت، ان يقهروه.

تحدّثوا عن الكلاب والغزلان والحمير، تحدّثوا عن فيضان الوادي، وعن جفاف النبع، وتحدّثوا عن عساف وعن البشر،

وتجرأ واحد وقال ابياتاً من الشعر، وكاد أحد الرعيان ان يستعمل نايه، لولا ان رجلاً مسنًّا انتزعه منه بقوة ونظر إليه نظرة تختلط فيها القسوة بالعتاب!

لا أحد يتذكّر بدقة الأشياء التي قيلت أو مَن قالها، لكن حين تذكر الطيبة، وحين تهجم الأحزان، وإذا جرى الحديث في وقت من الأوقات عن نهايات البشر والحيوانات، وحتى الأشجار، فلا بدَّ أن ترتد صورة تلك الليلة العجيبة لتذكّر بشيء واحدٍ: بالنهاية!

حتى الضيوف الذين تخشَّبوا في بداية السهرة، وتقيّأ واحد منهم بعد أن نظر إلى الجثة الممدَّدة أكثر من مرة، فإنَّهم بطريقة غريزية أقرب ما تكون إلى حالة من حالات التطهر التي يلجأ إليها الانسان في أوقات معينة، نسوا كل شيء، أو هكذا أوحوا لأنفسهم، وانساقوا في الدهاليز المظلمة التي قادهم اليها أهل الطيبة، وظلّوا يسمعون ويتحدثون. لكن الخوف كان يربض في كل حركة، حتى حركة الأجسام وهي تستدير لتقاوم التعب والخدر، وحتى السعال الذي يأتي فجأة، ثم قطرات الدموع التي تتساقط دون ارادة، كانت تخلق الخوف والجفلة. ثم جاءت القصص التي قيلت تلك الليلة لتجعل الحزن ملتصقاً بالجلد والعظام، ولتحفر في القلوب مجرى عميقاً لا يتوقف عن النزف كلما ذكرت الطيبة، وكلما جرى الحديث عن الحيوانات، وحتى عن البيوت حين تتهدم، حتى عن الغبار المتخلف من كل شيء كانت له رائحة خاصة تذكّر بأحزان لا حدود لها.

بعض حكايات الليلة العجيبة

جاءت سنوات القحط، وجاء الجراد، وجاء بعدهما الغرباء، وهذه كلها غيَّرت طبيعة الناس والحياة، فهجم الحزن واستقر في قلوب المسنّين، حتى ان الكثيرين قالوا بصوت عال: الموت أكرم من هذه الحياة الملعونة التي نعيشها هذه الأيام. وقال آخرون: لم يعد بيننا وبين القيامة إلاّ وقت قصير وتنتهي الحياة.

مع هذه الموجة الملعونة من التغيُّر، جاءت تلك السيارات التي تشبه الخيم، سيارات قاسية الملامح، قاسية الصوت، لا تتوقف ولا تعبأ بأية صعوبة كانت، تجتاز المسافات بسرعة، وتخوض في الرمال كما تخوض في المياه. أمَّا الأحجار التي تعترض طريقها فكانت ترفسها مثلما تفعل البغال، وكثيراً ما قال المسنّون إنَّها عربات تحمل في أعماقها العفاريت، لأنَّ ما تفعله لا تفعله إلاَّ العفاريت ذاتها.

وحيوانات الصحراء التي أحسَّت بغريزتها بتلك التغييرات وأصابها الخوف، ابتعدت عن الأماكن التي تمرّ بها السيارات، وتجنَّبت ورود المياه التي كانت على الطريق، واكتفت بأقل الطعام لكي تبقى بعيدة عن الحركة وعن تلك اللحظات المجنونة التي تخترق الانسان وتحوّله إلى كائن أشبه ما يكون بالرياح السوداء.

هكذا كانت الحياة حتى وقت ما. لكن الأغنياء والغرباء تصيبهم لحظات الجنون أكثر من غيرهم، وتخترقهم أرواح ملعونة تجعلهم أقرب إلى العفاريت. وهم الذين رفضوا استعمال خيام الحديد أوَّل الأمر ما لبثوا ان اقبلوا عليها برعونة. وفي ذلك الوقت بالذات قال المسنّون بصوت عال تماماً: الآن لا ننتظر القيامة وإنَّما نراها.

ومثلما تنبىء الرياح عن الأمطار، فقد بدأت الأشياء تتغيّر بسرعة. تغيّرت الصحراء كثيراً: شقتها الطرق، وملأ صمتها دويّ الآلات، واخترقت ظلمتها المديدة أضواء تشبه النيازك. وحتى الأماكن التي لم يألفها الضبّ والعفاريت ما لبثت أن أصبحت مسكونة بهؤلاء الذين جاءوا من حيث لا يعرف أحد. وفي تلك الأماكن فتحوا مطاعم من نوع لم يألفه أحد من قبل. وتقاضوا ثمناً كبيراً لما يقدمونه، من ماء أو شاي محروق. أما اذا توقَّف الرعاة هناك طلباً للراحة فكانوا يُتابَعون بنظرات الازدراء والقسوة. وحتى الجمال التي تعرف كيف تحتمل أقسى أنواع الحياة ما لبثت ان تحوَّلت إلى مخلوقات عجيبة مستفزة بصورة دائمة، فإذا لم تكف نظرات الغرباء لتجبر الرعاة على الرحيل فقد كانت الجمال تفعل بهياجها ورغائها.

حديث الصحراء اذن ليس له نهاية، إنَّه مثل امتدادها واتساعها وقسوتها ولا نهايتها. إنَّه حديث الحياة بكل ما فيها من امتداد واتساع وقسوة ولا نهاية، لكن حدث شيء ما جعل لذلك اليوم، بعد العصر وقبل الغروب بقليل، دويًّا يمتد إلى أماكن بعيدة، ويحدث اثراً قلَّما يحدث. فالعنزي مجنون قرية الجوف، والذي لا يعرف حرفة غير الصيد، والذي تحوَّل بمشقة من القوس

إلى البندقية، بعد ان سخر جميع الصيادين من طريقته البائسة في استعمال هذه الأدوات القديمة، أثبت انه خُلق للصيد، وانه لا يقل مهارة في استعمال البندقية عن القوس مثلما كان من قبل، وشعر بنوع من اللذة والتفوُّق حين كان يرجع بطريدته التي يريدها ويرميها بالمكان الذي يريد.

سوف يكتب الكثيرون، ذات يوم، عن مهارته ومعرفته، وسوف تحكى قصص كثيرة عن جنونه العبقري. أمَّا الجنون الحقيقي، فقد حصل ذلك اليوم بعد العصر وقبل الغروب.

لا يعرف كيف وافق على تلك اللعبة الملفقة. حصل ذلك فجأة، بعد تحدٍ من تلك التحديات التي تأتي وكأنَّها انبثاق لظلمة قاتلة. قالوا: «العنزي يرمي بالسهم أحسن من البندقية». سمع ذلك ونظر اليهم ليمتحن ان كانوا يعنون ما يقولون، أم انها مجرد كلمات يخلقها الليل والسمر. وحين ضحك ضحكته الصغيرة ولم يجب كانوا يعرفون ان كلماتهم لا تعني شيئاً بالنسبة له، وانه أكثر ثقة من أي وقت. أمَّا حين قال ذلك الماكر، ابو غريفة «ان العنزي هدَّاف لا يخطىء...» وتوقَّف قليلاً ثم ابتسم، فقد أحسَّ العنزي ان شيئاً ما سوف يحصل.

واذا كانت المفاجأة عدو الانسان، فقد كانت عدو العنزي أكثر من أي انسان آخر.

في ذلك الوقت، وبعد كلمات ابو غريفة، خيَّم صمت طويل قاس، وانتظر الجميع ان يقول شيئاً، وهذا ما حصل بعد ذلك.

قال ابو غريفة:

ـ العنزي هدَّاف لا يخطىء، اذا كان راجلاً، اما والسيارة مثل البرق...

وابتسم دون أن يضيف كلمة واحدة!

في ذلك المساء وافقوا ان يكون الرهان كبيراً، والعنزي الذي وافق، قال بتحدٍ:

ـ سوف آخذ طلقة واحدة، وسوف ترون.

انها المرة الأولى التي يشعر العنزي فيها بالتوتر، بالتعب، وبنوع من الحزن. سأل نفسه، «هل أظفر في هذه التجربة الملعونة؟ هل أنجو من النظرات وكلمات السخرية؟ وهل أصبح بعد فترة مثل اولئك الأغنياء الذين يملكون خيام الحديد ويتحركون بتلك الطريقة كأنَّهم أفواج الجراد بحثاً عن الغزال؟».

مرَّت هذه الأفكار وأخرى غيرها في رأسه. طردها بقسوة. كان واثقاً أنَّ طلقته لن تخيب. وكان واثقاً أكثر من ذلك ان هذا الرهان مثل غيره سيتحوّل إلى قصة جديدة تُضاف إلى عشرات القصص التي يرويها عنه الناس، ويرفض أن يؤكّدها أو ينفيها، لكنه مع ذلك يشعر بنوع من الحزن الغامض.

خيمة الحديد تتحرك، الخيام الأخرى تحرّك بعضها وبعضها ينتظر شيئاً ما ليتحرك، وموعد اللقاء بعد الغروب، عند الكيلو المائة والستين. ان كل شيء تغيّر بنظر العنزي. كيف كان يحمل قوسه وسهامه ويتحرك؟ متى كان يعود وإلى أي مكان؟ كانت هذه رهانات بينه وبين نفسه، أمّا عندما تحوَّل إلى البندقية فكان ذلك تحدياً أكثر مما كان رغبة، لكنه شعر ان المهارة في الحالتين سلاحه، وان السلاح الذي يستعمله الصياد لا يشكُل بالنسبة له أكثر من الفرق بين صيد وآخر.

في لحظات كثيرة وسائق سيارة الجيب يحدو كما لو انه

على ظهر بعير، شعر العنزي ان ما يحصل أمامه أكثر مما يطيق، فأحسَّ بالندم وسيطر عليه صمت حزين. لم يتعرض في حياته الى تجربة من هذا النوع، أمَّا حين قدَّم له الرجل الذي كان يجلس في المقعد الخلفي المنظار المقرّب ليستعين به، فنحّاه بيده دون أية كلمة. كانت عيناه تغزلان الأفق، تدوران مثلما تدور عينا صقر، لكن والسيارة تقفز مثل الجرادة، وتغيِّر سرعتها مثلما تفعل الرياح أيام السموم، فقد أصابه الدوار، وتأكَّد انه غير قادر على ان يفعل أي شيء مثلما تعود. ان حبة البندقية اصغر من القمحة الحقيقية، وأي اهتزاز، مهما بدا صغيراً يغيِّر كل شيء. تذكّر حين كان يرفع الرصاصة الفارغة من قاعدتها المعدنية من تلك المسافة الكبيرة، تذكّر حين كانت تعلق الرصاصات الفارغة بخيط وكيف يتناولها الواحدة بعد الأخرى بترتيب مذهل. أمَّا حين وضع الإبرة على مسافة عشرة أمتار فلم يرها احد غيره، ولما ذهبوا ليروا ان كان أصابها أم لا، قال بعض الماكرين ان الريح التي مرَّت إلى جانبها انتزعتها من حبة التمر التي علقت بها. تذكّر العنزي هذه الذكريات والسيارة تقفز بتلك الطريقة العجيبة. كان يريد ان يتأكّد من شيء واحد، ان يثبت البندقية على كتفه دون ان تحركها أية قوة. لكن والسيارة توالي هذا الركض بجنون فكان يمتلىء شكاً لحظة بعد أخرى، ولولا بقية من خوف او حياء، ولولا الكلمات الكبيرة التي سمعها في الليلة الفائتة، والتي قالها هو نفسه، لتراجع. لا أحد يستطيع ان يجبره. لا احد يستطيع ان يقنعه ان هذه هي طريقة الصيد. لكن حصل كل شيء فجأة دون تفكير او ارادة. والآن تفترسه الشكوك، يَتشبث به الحزن، يحس الغبار يدخل عينيه ويحجب عنه الرؤية. اما كلمات الذي يجلس وراءه،

فقد كانت أشبه بالأصوات المشينة، كان يسمعها ولا يفهمها. كانت فجأة تموت. اما عيناه اللتان تغزلان الفضاء بحثاً عن الطريدة فكانتا تمتلئان بشيء أقرب إلى الظلمة.

انه يعرف أماكن تلك الوعول القوية. وحين كان يربض بين الصخور، قريباً من الخبرة، كان لا يترك طلقة تغادر البندقية قبل ان تشرب تلك الوعول، ثم ترفع رؤوسها وتتشمَّم الهواء. كان يتخيّر أكبرها وأقواها، حتى إذا تملّى من المنظر تماماً خرجت الطلقة بتلك الطريقة العجيبة، لتقتل، لتقتل على الفور.

الآن، في هذه اللحظة تغيّر كل شيء بالنسبة له. لا يعرف متى يضرب، وهل ستتاح له لحظات التجلّي السمحة المليئة باللذة والخطر؟ انه يخاطر ولا يعرف ماذا سيحصل.

قال لنفسه: العنزي هذه المرة لا يصيد، وإنَّما البدوي الذي أفسده الأجانب يفعل ذلك، إنَّه يقود خيمة الحديد بطريقة رعنة، مرة يتركها تطير، مرة يتركها تدرج، مرة يتركها تجن، ومرة يتركها تموت حين يطفىء محركها لكي يخلق سكينة للحظات لعلَّ وعلاً ينفجر في هذه السكينة.

انقضى العصر كله، مالت الشمس نحو الغروب، هبَّت نسمات فيها رطوبة، تنفَّس العنزي ملء رئتيه، لكنه شعر ان الحزن يلفّه تماماً. قال لنفسه: «مثل كل مرة، العنزي لا يخيب». قال هذا ليخلق ثقة أخيرة في نفسه، وليقاوم الشك والعذاب اللذين يتفتتان في دمه.

ذات لحظة، قبل الغروب بقليل، في لحظة اتحاد كل الأشياء: الغبار والامتداد والشمس المتوهجة قبل سقوطها مع

الريح الطرية التي انسفحت فجأة لتخلق رائحة خاصة تملأ الأفق، في تلك اللحظة، رأى العنزي الوعل. صرخ بعذاب:

ـ هذا هوا

التفت السائق برعونة في كل الاتجاهات ليرى ذلك الوعل الخرافة الذي تحدّث عنه العنزي. لم يرَ شيئاً. انعطف نحو اليمين بخيمة الحديد انعطافة حادة لعله يرى، لكنه لم يرَ شيئاً. الذي كان يجلس في الخلف مدَّ إليه المنظار كمساعدة أخيرة، لكن العنزي أبعده بنوع من القسوة والاحتقار. قال السائق:

ـ لا أرى شيئاً!

ـ إلى اليسار قرب التل!

استدار بسرعة، أقرب إلى الحماقة، نحو المكان الذي أشار اليه العنزي، لم يرَ شيئاً. أوقف السيارة ومسح جبينه ونفض الغبار عن عينيه، نظر بامعان، ولما لم يرَ شيئاً، قال للصياد المرافق: «أعطني المنظار».

حين وضعه على عينيه وأدار رأسه نصف دورة كبيرة رآه على البعد، وبسرعة شغل السيارة مرة أخرى وانطلق مثل الريح. في تلك اللحظة كان العنزي متأكداً انه خسر كل شيء.

كانت السيارة بانطلاقها المرعوب مثل ذئب جريح. كانت تتلوى وتقفز كأنّها الكرة. والعنزي الذي أمسك بندقيته بقسوة، شعر ان كل شيء يهتز ويمكن ان يتمزق. كان يريد هدوءاً من ذلك النوع الذي اختبره وعاشه طويلاً. كان يريد ان يشعر بلذة الاختيار ولحظة التصويب. وهو الآن يفقد كل شيء: الاستقرار، اللذة، الاختيار.

لا شيء سوى هدير السيارة والغبار، وذلك الدوران الأهوج، والوعل يغيب ويظهر كأنّه السراب، والسائق البدوي الذي ظلَّ يحدو طوال الفترة السابقة أصابه نوع من الجنون. كانت تخرج من فمه أصوات عمياء، وكان يصرخ بشتائم نابية، وكان يعاكر الريح.

الغثيان يملأ حلق العنزي، عيناه تغيمان، صمته يقسو ويشتد حتى يصبح مثل حجر فوق صدره. أمَّا محاولاته في ان يسيطر على نفسه او على الآخرين فقد انتهت الى الفشل. انه عاجز تماماً.

مطاردة عجيبة لا تحصل في الحياة إلاَّ مرة واحدة. وتلك الخيمة الحديدية التي سمع الكثير عن قوتها في اجتياز كل الصعوبات وجدها أقرب ما تكون إلى صخرة تتدحرج بطريقة عمياء. دارت حول التل مرة، دارت مرة أخرى، والوعل الذي يبدو ويختفي لا يعرف إلى أين يذهب او كيف يستطيع التخلص من هذه النار التي تحيط به من كل جانب.

يقترب، يبتعد، يظهر، يتلاشى. لكنه دائماً يركض في محاولة لأن يهرب من النار التي تحاصره. والعنزي، الذي كان يتحدث عن الغزلان مثلما يتحدّث عن النساء، وجد نفسه عاجزاً او مسلوباً. أمَّا البندقية بين يديه فقد أصبحت مثل جثة ثقيلة لا يعرف كيف يحرّكها او يتخلص منها.

قال لنفسه: آخر يوم من أيام العمر!

اما حين سمع الصياد وراءه وهو يصرخ:

ـ عنزي استعد.

فقد شعر ان مخرزاً يدخل جنبه، شعر ان التحدّي لا يزال قائماً، وان فرحته الأخيرة تقترب وتتلاشى في كل لحظة. وذلك البدوي الذي يتحدّى بصوت مجنون كان هو الذي يصيد. كان يسرع مثل الريح، يصرخ، يشتم، وكانت هذه الأشياء تجعل العنزي يفقد ارادته وقوته واخيراً قدرته على التصويب. ارتطم رأسه بالزجاج الأمامي، وحزَّ طرف المقعد جنبه، والوعل يركض بسرعة ويلتفت بطريقة مذعورة لعلّه يجد طريقاً تجنّبه حصار النار المجنونة.

•

في لحظة ما، والأصوات تحاصر العنزي وتفتك به، شعر ان يداً غير يده ترفع البندقية، وشعر انها تستند على كتفه، وفي لحظة الصراخ والتحدّي والذهول كانت طلقته.

كانت الشمس على وشك المغيب، وكان محرك السيارة قد انطفأ، وكانت العيون الستّ تتجه إلى ذلك المكان الذي سقط فيه الوعل. وإذا كان البدوي والصياد المرافق، الذي اريد منه ان يكون شاهداً، قد نزلا بسرعة مذهلة، فقد جمد الخوف العنزي فلم يتحرك، لكن والصرخات والاشارات تستفزه وتطلب اليه ان يترجل لكي يرى الطريدة، تحرَّك ببطء، نزل، مشى بهدوء، لكن بطريقة تختلف عن أية مرة سابقة، كانت نفسه تمتلىء بالحزن. اما حين اقترب كثيراً، ونظر تلك النظرة، شعر ان الدنيا تضيق وان الظلمة تهبط فجأة. كانت رصاصة ثقيلة خانقة، لأنَّ العنزي الذي قتل عدداً كبيراً من الوعول، لم يرَ في حياته وعلاً مثل هذا الذي يراه في تلك اللحظة: كانت عيناه تتركزان في عيني العنزي تماماً، وكانت دموع بطيئة، لكن كثيفة، تتساقط. أمّا رجله اليمنى المكسورة فكانت مثل عصا قديمة، وكانت الطلقة قد فتحت نفقاً

أحمر مسوّداً في الجانب الأيسر وكانت قطرات الدم اللزجة الكثيفة تتساقط خيطاً قاتماً تعلن نهاية كل شيء.

ولم يستطع العنزي ان ينظر اليه أكثر من تلك المرة. ولم يستطع ان يركب خيمة الحديد في طريق العودة. اما البندقية فقد تركها في السيارة ولم يسأل عنها مرة أخرى. ولم يسمع احد شيئاً عن العنزي بعد ذلك اليوم. ومن جديد كثرت الأحاديث عنه وتشعَّبت واختلط فيها الخيال بالواقع، لكن أكثر الأحاديث انتشاراً كان الحديث عن تلك الدموع التي غيَّرت وجه الصحراء وظلَّت تنهك قلوب الناس كلما جرى الحديث عن هذا النوع من الصيد الذي كان في يوم من الأيام!

انتهى اليوم الأول بالخيبة، فالرغبات الكبيرة التي عزّزتها القصص والخيال الجامح المفترس، ثم الأدعية الوثنية التي رُدّدت بأصوات خفية لاهثة ومليئة بالابتهال، جعلت ذلك اليوم بائساً. أمّا الطيور القليلة التي نامت بطريقة ما تحت الأرجل او علّقت على أطراف السيارة فكانت اشارة أخيرة ان الحزن يتوغل في القلب ويستقر هناك.

لا يمكن تذكّر الأصوات التي انطلقت في الليل، اختلطت بالأكاذيب والخيال وعذاب القهر، اختلطت بالخيبة حتى لم يكن هناك احد يسمع أحداً. وعندما نام الرجال كان الغيظ ينتظر الفجر مع ثقة بإيمان في القلوب أكثر من الكلمات التي تردّدها الأفواه ان الطلقات لا يمكن ان تنغرز إلاّ في الرؤوس او في الجنبات اليسرى، لأنّ حماقة اليوم الأول والسرعة وعشرات الأوهام الصغيرة الأخرى كانت تؤكّد أنّ الخطأ أقرب إلى الجريمة، وان السرعة عدو الانسان الأول، أمّا عدد الطرائد التي أصيبت في أماكن غير قاتلة فكانت كثيرة إلى درجة ان لا أحد يتذكرها!

كان اكثر الصيادين شعوراً بالخيبة، وكان أكثرهم حقداً وجنوناً، لا يمكن ان يكون فاشلاً بهذا المقدار، فهو ليس مبتدئاً او هاوياً حتى يسمح لنفسه ان يكون هزأة أو ثانوياً في هذه الرحلة السنوية التي استعدّ لها فترة طويلة، وانتظرها فترة أطول. كان

يريد ان يثبت لنفسه، قبل ان يثبت للآخرين، تفوقه الساحق وامتلاكه النهائي لما يريد. والآخرون الذين نظروا اليه بتقدير يمازجه الحسد اعتبروا هذه الرحلة مقياساً لتطوّر امكانياته في الصيد خلال سنة كاملة، خاصة وان هذه السنة كانت حافلة بالرحلات والأكاذيب والمهارات المتفجرة الغامضة التي يردّدها كثير من الناس. وهذا الاختبار الجديد يكون حقيقياً ومؤذياً حين يأتي الغرباء، خاصة من الهواة. ان نظرة هؤلاء فيها من التقدير والشك مقدار متساوٍ، ويتصرفون بكثير من الخوف والتحدّي والسخرية بعض الأحيان، حتى ان كلمة تصدر في غير وقتها أو في غير مكانها تقتل أكثر من الطلقة!

هل نام تلك الليلة؟ هل حلم بالوعل الكبير الذي يسقط من الضربة الأولى؟ هل يلتزم بتلك القاعدة البائسة التي وضعها شعاراً للآخرين قبل أن يضعها شعاراً لنفسه: الوعل... ما أريد؟

شيء ما حصل في تلك الليلة.

واذا كان النوم ليس مجرد راحة او حاجة، بالنسبة للصياد، فإنّه يجعل صياداً ظافراً وآخر فاشلاً، ويجعل يداً ترتج وأخرى تصمد كالصخرة. لقد رأى نفسه فوق تلال من الوعول. كان يضع قدمه بعدم اهتمام على قرن الوعل الكبير الذي يقود القطيع، ويتحدّث بإيجاز يصل حدود الازدراء مع ذلك الصياد المبتدىء الذي اختار ان يكون رفيقاً ورقيباً له، وكان ينظر الى الآخرين بنوع من الزهو المتواضع!

شيء ما حصل في تلك الليلة.

كان ينتظر الفجر لينطلق، لكن الفجر لا يأتي، والرجال لا

يزالون نائمين. مرَّ على السيارات الثلاث وتأكَّد من ذلك. أمَّا صمت الصحراء فكان عميقاً مسيطراً الى درجة انه ينزل إلى قلب الانسان خوفاً واتحاداً مع شيء ما. وحين أيقظ رفيقه في الرحلة، وبعد ان انتظر طويلاً ودخَّن عدداً من السجائر، كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة، فانطلق.

اذا تحرَّك في هذه الساعة يمكن ان يدرك المكان الذي أخطأ فيه الوعل امس مرتين. كان مكاناً وعراً، حتى ان السيارة رفضت الاستجابة، أمَّا الوعل الذي وقف بعيداً ونظر بتحدٍّ، فقد شكل نهاية لكبريائه، إنَّه الاحتقار الأسود.

غبش الفجر، مكان الأمس، الوعورة، الحقد، التحدِّي، النظرات المصقولة التي ترى كل شيء في لحظة ميلاده الأول... والحقد مرة أخرى!

لحظة انهيار الظلمة ترافقها لحظة انهيار أضواء السيارة، قبل ان تولد الشمس، قبل ان تستيقظ ينبثق نور لامع من مكان ما يجعل الرؤية ناصعة وأقرب ما تكون الى نور داخلي وهَّاج.

دار دورة كبيرة بمكر حاقد. كان يريد ان يصل هذا المكان مع التماعة النور، وقبل ان تشرق الشمس، انه يعرف الأماكن كما يعرف باطن يده، ويعرف كيف يسقط على الوعل اللئيم كما تسقط الظلمة ايام الشتاء.

اتسع النور واتسع المكان، وفي هذه الالتماعة المضيئة الصاخبة رآه. كان منظره يشبه النور ويشبه راحة اليد، كان الوعل الذي تحدّاه في الأمس!

الوعورة سد للاثنين. إنَّها بمقدار ما تعطيه حرية الحركة

تعطي الطريدة حرية الهرب والتخفّي، وفي الغبشة الرمادية الباردة المنعشة اللامعة، وبين صخرتين رآه، كان ينتظر هذه اللحظة، كان ينتظرها بلهفة أقرب الى العشق، نسي ضربات الرأس والجنبات، فقط يريد ان ينتقم، وانها اللحظة الوحيدة التي لا تأتي إلاَّ نادراً. خفَّف سرعة السيارة، اطفأ محركها، انزلق بهدوء، أصبحت المسافة قصيرة، ترجَّل من السيارة، ارتجف قلبه وهو يتقدم، اصابه الشك ان الوعل مجرد صخرة أو انه يتخفَّى بطريقة شيطانية. تقدَّم أكثر، أصبحت المسافة لا تتعدى الثلاثين متراً، انها المسافة التي يريدها، يتمناها.

في لحظة ما، لم يعد يطيق صبراً. ان تحدِّي الوعل أكثر مما يحتمل، يجب ان يلقِّنه درساً لا ينساه، ويجب ان يمتحن جدارته أمام نفسه قبل ان يمتحنها أمام الآخرين.

ليس مهماً ان كان التماع النور هو الذي جعله يرى بهذا المقدار الشاسع، وليس مهماً ان تكون الضربة في الرأس او في الجانب الأيسر، لأنَّ المسافة حين تصبح بهذا المقدار تكون قد كثفت الحقد كله وجعلته يستقرّ في القلب تماماً.

في الغبش، في التماعة الضوء، في سواد الحقد، كانت الطلقة!

كان دويها صاخباً فتَّاكاً كاوياً، سمع صرخة صغيرة، ثم رأى الطريدة تلتوي قليلاً، تأكَّد في تلك اللحظة من الظفر. شعر بنشوة جامحة أقرب إلى الالتهاب. كان يريد ان يكون إلى جانبه عشرات الناس ليروا المهارة، الدقة، النفاذ. انها الطلقة الأولى في عتمة الفجر، التماعه، ولا بدَّ ان تستقر في المكان الذي يريده، لو لم تستقر في الرأس، في الجانب الأيسر فلا يمكن ان

تلتوي الطريدة بهذا الشكل وبهذه السرعة.

مشى بهدوء زاخر ليصل ممتلئاً باللذة والعنفوان، قال لنفسه، النوم والأحلام وآلاف الأكاذيب الأخرى أوهام الخائفين والخائبين.

تقدَّم أكثر، تقدَّم أكثر، والتمع الكون كله، كان النور مليئاً بالبياض الناصع، مليئاً بالصفاء الذي يجعل الرؤية أقرب إلى خشونة الملمس.

في الخطوة الأخيرة، قبل ان يلتقط بنظراته الملتهبة قرون الوعل، كان الجدي الصغير قد تدلَّى رأسه وقسم صغير من جسده، ورأى الأم تميل ناحية اليمين قليلاً، لكن تحاول بقوة ان تدفع المخلوق الجديد إلى النور. تحاول ان تخلص منه قبل الموت. ونظرت إليه... كانت عيناها مليئتين بالدموع!

من الأمور التي بدت عجيبة لسكان الحيّ، قريباً من بستان الآغا، والتي لم يألفوها ولم يروا مثلها من قبل: ان كلبة في البستان، كانت تخوض صراعاً من نوع غريب. كان هذا الصراع يقع مرتين في اليوم، مرة في الصباح الباكر ومرة قبيل الغروب. الذين لم يروا منظر الصراع وسمعوه من غيرهم، لم يصدقوا أول الأمر، إذ تصوروه عارضاً وشاذاً ولا يمكن ان يتكرر. لكن حين اخذ يقع تحت أبصارهم، وبدأوا يتابعونه باهتمام، ثم لما بدأوا يعرفون متى يقع وكيف يبدأ وكيف ينتهي، أصبح الأمر مثيراً ومدعاة لتعليقات كثيرة ومتناقضة. فسَّر أغلب الناس ذلك العداء بين الكلاب والغربان بأنَّه عداء غريزي قديم وراسخ، وفسَّره آخرون انه مجرد دعابة يلجأ إليها هذان الغرابان ليكسرا رتابة الحياة، ولكي يمارسا رياضة من نوع خاص.

أمَّا كيف وقع الأمر في البداية فأقرب ما يكون الى الخيال: فقد ذكر بعض الذين شهدوه ان الغرابين كانا ينتقلان، كعادتهما، بين شجرة وأخرى. كانا يطيران طيراناً ثقيلاً أخرق، وفجأة عوت عليهما الكلبة، وخلال فترة قصيرة بدأت تلك المعركة العجيبة. كان أحد الطيرين يأتي من المقدمة وما يكاد يسفّ ويقترب وتحاول الكلبة القفز عليه، حتى يأتي الآخر من الخلف وينقرها من ظهرها، وحين تلتفت يأتيها الأول من المقدمة وينقرها في

رأسها، أو في مؤخرة الرقبة.

قال الذين رأوا ذلك ان الأمر لن ينتهي إلاَّ بنزف الدماء ويقضاء أحد الخصمين على الآخر. وظنَّ بعض الناس ان الأمر لن يطول حتى تتلقف الكلبة رقبة أحد الغرابين وتمزقها. لكن اللعبة امتدت وطالت وتخللتها براعة لم يتصورها أحد، لأنَّ مسافة الأمن التي حافظ عليها الغرابان كانت من الدقة إلى درجة تضطر الكلبة في أحيان كثيرة إلى العواء او إلى الدوران السريع لكي لا تقع فريسة لغدرهما. والغرابان اللذان كانا ينقضّان بتلك الطريقة الذكية الماكرة لم يكونا في عجلة من الأمر. كانا ينتظران وقتاً كافياً، وقد حطَّا على غصنين متقابلين، حول الكلبة، حتى اذا تعبت من الدوران المجنون او النباح واستقرت على وضعية معينة بدأا اللعبة من جديد.

هكذا بدأت اللعبة أول الأمر، ومثلما بدأت انتهت بشكل مفاجىء، وقد كانت هذه النهاية مخيبة لكل امل. أمَّا حين أخذت تتكرر، وبأوقات تكاد تكون ثابتة، في الصباح الباكر وعند الغروب، فقد أثارت الكثير من الدهشة والاستغراب، وبدأت تجمع الناس بطريقة احتفالية، والناس الذين فتنتهم الغرابة في البداية لم يلبثوا ان انقسموا إلى فريقين، كل فريق يناصر احد الخصمين، ويريده ان يقضي على الآخر، أو يوقع به خسارة حقيقية. ومن أجل ذلك اعطوا للكلبة اسماً، سمُّوها مرجانة، أمَّا الغرابان فلم يكونا قادرين على أن يسمُّوا كل واحد منهما باسم مستقل للتشابه بينهما. فأطلقوا عليهما الغارة.

وإذا كانت طبيعة الحياة قريباً من بستان الآغا تتيح لعدد محدود ان يتابع هذه المعركة في الصباح الباكر، فإنَّ عصارى أيام

الربيع كانت حافلة: كان جميع سكان المحلة يحرصون على حضور هذه المعركة ويتوقعون نهاية ما لها. فكان الأطفال يرابطون منذ العصر ويراهنون، وكانت النسوة يأتين حاملات معهن الأطفال الرضع وأباريق الشاي، وكان الرجال آخر مَن يأتي. وفي كل يوم بعد العصر وقبل الغروب، وبمكان لا يختلف إلاّ قليلاً، تبدأ المعركة. مع المعركة ترتفع الأصوات وتتعالى الهمهمات. ويصرخ أحد الرجال: غارة، فيثير هذا الصراخ حماس الأطفال وصخبهم. وما يكاد ينقضّ الغرابان حتى يدوي صوت: مرجانة. لم تكن مرجانة بحاجة إلى هذا التنبيه، كانت تقف مترقبة حذرة، وفي لحظات معينة تتظاهر انها لا تسمع ولا ترى، لكن ما تكاد تسمع أحد الغرابين يسف قريباً من الأرض، وبمكان قريب، حتى تقفز تلك القفزة الشيطانية، ورغم القوة والاندفاع القوي يكون الغراب قد ارتفع الى المسافة التي تحفظ له الأمن، وتبدأ بعد ذلك اللعبة بين صرخات الأطفال وترقّب الرجال وخوف النساء. كان كل واحد ينتظر شيئاً ما! وكان كل غروب يضع نهاية لهذه اللعبة، لكن بطريقة استعراضية ماكرة، اذ يتظاهر احد الخصمين انه هزم، وان المعركة لا بدَّ أن تشتعل مرة أخرى في وقت لاحق.

على هذا النسق الممتع كانت تجري المعركة طوال ايام الربيع المبكر. واذا كانت حماسة الرجال قد فترت ومشاركتهم في متابعتها تباعدت بمرور الأيام، فإنَّ الأطفال لم يتوقفوا عن ذلك يوماً واحداً.

ذات يوم، وبشكل مفاجىء انتهى كل شيء، غابت الكلبة، ولم يعد أحد يشاهد الغرابين. قال بعض المسنِّين: الغربان مع

بداية فصل الحر تذهب إلى أماكن رطبة، ولا بدَّ ان يكون هذان الغرابان قد رحلا الى تلك الأماكن. ويضيفون بثقة: «الغربان تفعل ذلك دائماً».

وقال رجال آخرون... «حيوانات لا يعرف الانسان متى تأتي ومتى تذهب، متى تلعب ومتى تتوقف عن اللعب». وقال غيرهم: «سئمت الكلبة هذه اللعبة، لأنَّ نقر الغربان ونعيقها ولَّدا فيها جروحاً وخوفاً، ولم تعد تطيق» وقال الأطفال «يجب أن نذهب إلى البساتين المجاورة، لأنَّ مثل هذه اللعبة لا يمكن أن تنتهي ابداً».

هكذا قال الناس، وبدأت صورة مرجانة تغيب. أمّا اذا رأى احد غرباناً في مكان ما، فقد كان على يقين ان هذه الغربان التي يراها الآن ليست تلك التي كانت في بستان الآغا.

في أول أيام الصيف رأى بعض الأطفال مرجانة. كانت فرحتهم حين رأواها لا توصف. نقلوا الخبر إلى المحلة بسرعة، وتصوّروا ان اياماً جميلة مثل تلك التي مرت لا بدَّ ان تتكرر. أمّا رؤوسهم فقد بدأت ترتفع الى هامات الأشجار وسطوح الأبنية تبحث عن الغربان. ولم يرَ أحد من الأطفال البطن المتهدّل او الأثداء الثقيلة لمرجانة، وبعد يوم أو اثنين رأى الأطفال مشهداً عجيباً: رأوا مرجانة ووراءها خمسة جراء. كانت أشكال الجراء المدببة المكتنزة تثير عواطف الحب والاعجاب والتساؤل. من أين أتت بهذه الجراء؟ أين كانت؟ أمّا حين نقلوا الخبر إلى الكبار، فقد هزَّ هؤلاء رؤوسهم دلالة المعرفة، وبدوا كأنَّهم يعرفون كل شيء!

خلال فترة قصيرة بدأ الغربان بالظهور مرة أخرى. واذا كان

الأطفال قد عبَّروا عن فرحهم دون تحفظ وبهياج، فإنَّ الكبار بدوا أكثر اتزاناً، ونظروا إلى كل ما حولهم بتأمل، وفكروا في الحياة والموت، وفكَّروا بالأشجار والطيور، لكنهم كانوا يتوقعون ان يروا في وقت قريب مرجانة وقد أصبحت أكثر ثقة وخوفاً في وقت واحد. كانت حول الصغار تسير بأبهة وكبرياء، وكانت تعوي عواء حاداً اذا اقترب أحد منهم. أمَّا رأسها فلم ترفعه لترقب الغرابين ولم تأبه لصرخاتهما وهما يتطايران من شجرة إلى أخرى، وظلَّ الغرابان بعيدين يرقبان مرجانة وجراءها، ويرقبان البشر، ولا يفعلان أكثر من ذلك!

الانتظار يزداد حدة، والذين لم يحرصوا على مراقبة المعارك التي كانت تجري في العصاري وجدوا أنفسهم دون وعي، لكن بتصميم، يستيقظون مبكراً، يمرون ببستان الآغا ويتوقفون طويلاً لعلَّ شيئاً ما يقع. كانوا يتظاهرون انهم يرقبون مرجانة وجراءها، وفي بعض الحالات تراهنوا على الجراء: أيُّها الذكور وأيُّها الاناث دون ان يقتربوا. وتراهنوا ايضاً: أيُّها سيكون قوياً وأيُّها سيكون ضعيفاً. وهذه المراهنات كانت تخفي شيئاً وراءها: متى تقع المعركة من جديد، كيف يتصرّف الغرابان ضمن هذا السراب من الكلاب؟

ومثلما حصل في المرة الأولى، بعد اختفاء مرجانة والغرابين، ونتيجة للسلام الذي بدأ يغطي بستان الآغا، دون مفاجآت من أي نوع، فتر حماس الكبار، نساء ورجالاً، ولم يبقَ إلاَّ الصغار.

في أحد أيام تموز كان النهار في بدايته رطباً مشعاً ثم بدأت حرارته تقوى وتشتد. في ذلك اليوم، سمعت سبع طلقات، وقال

الصغار، فيما بعد، ان شرطي البلدية قتل الكلاب. قتل مرجانة أول الأمر، ورغم ان الطلقة استقرت في جانبها فقد أطلق عليها مرة أخرى ثم قتل الجراء الخمسة.

في اليوم التالي بينما كانت عربة القمامة تحمل جثث الكلاب الستة، كان الغرابان يحومان حول العربة وينعقان بصرخات قاسية، وقيل ان الحمار الذي كان يجر العربة اصابه الفزع وقلب كل شيء. وقيل أيضاً ان الغرابين لم يتوقفا طوال ذلك اليوم عن النعيق ومتابعة العربة... والشيء المؤكّد انهما لم يظهرا ابداً بعد ذلك اليوم في بستان الآغا!

كان يوماً عصيباً حين جاء. جاء من مكان بعيد، قطعوا به مئات الكيلومترات حتى وصل.

في الزاوية قضى وقتاً طويلاً. لم يشترك مع الذكور الأخرى في استعراض ريشه البنيّ المرقط بالأبيض، أمَّا ساقاه اللتان كانتا تميزانه عن الطيور الاخرى، فقد بدتا ثقيلتين لا توحيان بالثقة وظنَّ الكثيرون ان الثمن الذي دفعه أُلقي في البحر.

لماذا يمتلك الانسان هذا المقدار الكبير من البلاهة؟ ولماذا يقطع المسافات الطويلة من أجل شيء لا يستحق؟

تردد هذان السؤالان، وغيرهما الكثير، في القرية. أمَّا هو فكان يمتلىء اصراراً غامضاً ان شيئاً ما سوف يحصل ذات يوم. ولم يكن يدري ما هو هذا الشيء، وكيف سيحصل، لكنه كان واثقاً إلى درجة انه رفض الاجابة عن أي سؤال حول الثمن الذي اشترى به الطير، ورفض أكثر من ذلك ان يتحدّث عن مزاياه. أمَّا في وقت سابق فلم يترك أحداً إلاَّ وتحدَّث معه وأطال كثيراً، إلى درجة ان المهرجان الذي تعوَّدت القرية ان تقيمه في الأيام المبكرة من الربيع جعل الناس تسرف كثيراً في تصوّر شكل الطير الذي سيأتي والبراعة التي ستبدو في كل تصرفاته، أمَّا أصحاب طيور الحمام في القرى المجاورة فقد خافوا خوفاً حقيقياً، رغم ان الرهان كان واضحاً وحاسماً:

«إذا استطاع ذلك الطير الذي دفع ثمنه محصول سنة كاملة أن يلتقط أكثر من انثى أو اثنتين فحرام علينا تربية الحمام».

في الزاوية قضى وقتاً طويلاً. وقع الندم، وجاءت بعده المرارة، أمّا شعور الخديعة فقد أصبح مسيطراً «لا يصدق مدى الدهر مربّي حمام أو صياد».

هل يمكن أن يحصل كل هذا؟

في أحد الأيام نفش ريشه، في يوم آخر ترك الزاوية وجلس في شمس الربيع الدافئة، في يوم ثالث قرقر وأصابه شيء من جنون وهو يتمشّى في القفص الكبير. أمّا حين تقرَّر ان يتركه ليطير فكان هناك خوف حقيقي من أن يفلت ويرجع من حيث أتى، أو ان يصبح فريسة لطيور الحمام الأخرى. طار وعاد في اليوم الأول. كان طيرانه مضطرباً قصيراً، حتى انه أثار ضحك الكثيرين. وتأكّدت الظنون السوداء التي امتلأت بها قلوبهم ولم يقولوها. أمّا ذكور الحمام الأخرى فقد كانت تنتفض في الشمس، وتعاكر بقوة لكي تنطلق وتفترش الهواء، وكانت تشعر بنوع من التحدّي الخفي. واذا كانت الاناث قد حافظت على نوع من التمنع اللذيذ وتحدّت ذكورها بصمت، ونظرت من بعيد إلى القادم الجديد، فإنّ ذلك ضاعف التحدّي لدى الذكور وقواه كثيراً، ولولا الخوف الغريزي لحدثت أشياء كثيرة.

في أيام نيسان المتأخرة حصل شيء ما. شيء لا يمكن رؤيته ولكن تدركه الحواس بغموض، وهو أقرب إلى سير المياه أو هبوب الريح. ان أشياء مثل هذه تدركها الحواس حتى لو كانت الظواهر لا تنبىء بها.

انتفض. انتفض أكثر من أية مرة سابقة. هاج وقرقر. أمَّا مشيته داخل القفص الكبير فقد كانت بداية لعراك طويل. وهذا الذي حصل فجأة لم يبقَ سراً. انتشر كما تنتشر أوراق الخريف. لم يبقَ أحد في القرية إلاَّ وعرف ان الديك قد استيقظ في دماء هذا الطير. وانه قرَّر أن يبدأ لعبته الكبيرة.

منذ ذلك اليوم وحتى وقت متأخر لا يبدأ الحديث ولا ينتهي إلاَّ عن مشيته، عن طريقته في التقاط الإناث كما يلتقط الحبوب، وعن تلك القوة المليئة بالمكر التي تجعله يقود أسراب الحمام كما لو انه يلعب بها أو كأنَّه يمازح الرياح، ونظرات الذين يرقبون من أسفل هذه السباحة المجنونة تمتزج بكلمات الاعجاب.

وإذا كانت الكلمات الجديدة قد اكتسبت رنيناً لذيذاً في أذنيه، والنظرات أصبحت مشبعة بذلك التأييد الخفي، فقد أصبح أكثر قوة وأكثر قدرة على أن يفعل ما لا يفعله أحد. والرهان الأول لحقه رهان ثان ولحقته رهانات أخرى. ولا يعرف الخسارة أو التراجع. كان يصل دائماً، قد يصل متأخراً لكنه دائماً يصل.

والناس الذين نظروا إليه من هذا الجانب واعجبوا به كثيراً رفضوا ان يتصوروه طيراً مثل باقي الطيور. كانوا يريدون ديكاً، وأبى أن يكون إلاَّ ما هو، أمَّا حين رأوه لاطياً في الزاوية الى جانب تلك الحمامة الصغيرة، فقد بدأوا يسخرون:

ـ «كيف يقبل بهذه الجرباء؟»، «لو كان أصيلاً لاختار واحدة وأكثر من الجنسيات التي تماثله لكي تخرج الفروع أقوى من الآباء والأمهات معاً»، «إنَّه مجنون مثل مجانين كثيرين».

كان يريدها هي، كان يحب تلك السكينة اللذيذة التي تمنح

لعينيها شيئاً من المسكنة. وكانت رغم كبر جسمها، صغيرة وأقرب إلى الطاعة، أمّا عندما يريد منها شيئاً فكانت لا تعطيه إلاّ بعد أن يتعب ويلهث!

إن شيئاً ما حصل في هذه العروق المجنونة.

والناس الذين أحبوا طريقته في المشي والطيران، وبالغوا كثيراً في تصور قدرته، رفضوا أن يصدقوا طريقته في الحياة. واذا كان الشباب في العصاري، توقّعوا الكثير منه، زيادة على المشي بتلك الطريقة المتباهية والطيران الماكر، وتحدّثوا عن ذلك بصوت عال ليلفتوا نظر الصبايا، فقد أرادوا منه ان يتصرّف بفحولة جامحة، كما تفعل بعض الحيوانات والطيور، لكي يبالغوا بالضحك ويتكلموا بصوت عال كطريقة اضافية في الاغراء، لكنه أبى. ظلّ يمشي ويطير كما يريدون، وظلّ يعيش كما يريد.

والمسنّون الذين أبدوا اعجابهم بقوته ومكره لم يستغربوا كثيراً طريقته في الحياة. كانوا يرون ذلك أقرب إلى الطبيعة، وكانوا ينظرون إلى أنفسهم!

جاء من نسله أفراخ بعد أفراخ، وهذه الأفراخ تعلّمت منه الكثير، وتوارثت عنه الكثير، وجاء يوم غيّرت القرية اسمها لتصبح قرية «برج الحمام» لأنّ الحمام في القرى الأخرى هجرها ليأتي إلى هذه القرية، وحتى الحمام الأزرق البري الماكر، الذي تحدّث عنه الناس بمرارة لصعوبة الوصول إليه في الآبار العميقة التي يسكنها، أو في الكهوف القاسية بين الصخور العالية التي يضع فيها بيضه، جاء أسراباً، واحداً بعد آخر، عن طريق هذه الأجيال الجديدة.

واذا كانت الأيام بتواليها المستمر تجرف معها الصخور من أعالي الجبال، وتسقط أوراق الأشجار، وتقلع السكينة من القلوب، فقد جاءت مثل هذه الأيام على هذا الطير.

كان وهو يمشي في الشمس الدافئة وينظر إلى الأسراب الكثيرة الملونة الغنية المتداخلة الأجناس، تتملكه رغبة واحدة: ان يستمر في الطيران، وان يظل إلى الأبد معلقاً بين السماء والأرض. وكان يأبى أن يتخلّى عن عاداته، عن الطيران وعن الحياة بطريقته.

ذات يوم، وكان الربيع مرة أخرى، شعر أن قواه تعاوده أكثر من أيام ماضية، وشعر انه يريد ان يطير إلى أماكن بعيدة، وكان يريدها هي أن تطير معه. نفض ريشه، دار حولها، قرقر، قال لها ان الفضاء المكان الوحيد الذي يستطيع أن يراها فيه ملكة؛ ولما رفضت أن تطير، همس في أذنها انه لا يستطيع ان يبقى على الأرض ويجب أن يطير. مشى بأبهة الملوك، بثقتهم، بقوتهم، ثم انطلق. دار في الجو دورات كثيرة. دار ونظر إلى الأرض، وكانت حواليه الأسراب الكثيرة وهي تطير مفتونة. إنَّها احدى المرات التي يشعر انه امتلك كل شيء. ان تتطلع في عينيه لتكشف الآفاق البعيدة التي وصل اليها، الأشياء الرائعة التي رآها، لكنها لم تكن هناك. استراح قليلاً وهبط وبحث عنها. كانت في الزاوية، الزاوية نفسها التي جلس فيها أوَّل مرة. كانت هناك، اقترب، نظر اليها بتساؤل، التفت إلى الناحية الثانية، دار حولها، استدارت. ودار حولها مرة أخرى، جلب لها بعض الحبوب لتأكل، نظرت إليه بحزن واستدارت مرة أخرى. وحين خيَّمت الظلمة هبَّت معها ريح باردة. اقترب منها ليدفئها، اقتربت

منه، حاولت أن تنام تحت جناحيه، أن تتَّحد به. وحين غفا هبَّت ريح باردة وشعر انه يقترب منها، وانه يتّحد بها، وناما.

في الصباح، رفض ان يصدّق، دار حولها، قرقر أكثر من أية مرة، انتفض، استعمل قدميه ومنقاره، ضرب جناحيه بالجدار، وحين فتح باب القفص، بدأت نسمات الصباح تمتلىء بالدفء.

بدت ساكنة حين دبت الحياة في كل شيء. دار حولها، دار مرة أخرى، لكنها ظلَّت باردة، ثم بعد قليل بدأت تجف.

خرجت الأسراب، خرج الصغار والكبار، وظلَّت في مكانها. وحين جاءوا نظروا إليها بأسف ثم أخرجوها من هناك، مشى وراءهم حتى نهاية القفص، أمّا حين نظر في عيونهم، وامتلأ بتأكيد أخرس، فقد تراجع بذعر إلى الزاوية نفسها.

وفي الزاوية نفسها، بعد ثلاثة أيام، حملوه من هناك. كان يابساً، وتساقط منه ريش كثير من العرف والساقين وهو يُرمى بعيداً.

لا أحد يستطيع ان يؤكّد بثقة أصله. يقولون انه ابن ذئبة، ويقولون انه كلب من الجبال البعيدة، ويقولون انه كلب مثل باقي الكلاب وليست له أية ميزة! ولكي يثبتوا ذلك يقولون: عندما ينبح فإنَّ نباحه أقرب إلى الذئاب، أمَّا إذا صمت وارتكن زاوية في الظل فيقال: «غدار، ولا يدري أحد متى يجن». وحين يختلفون في تحديد أصله ومزاياه ينتهون إلى تلك الكلمات المزدرية التي تعوَّدوا عليها: كلب ابن كلب، ولا شيء غير ذلك!

كان منذ البداية كثير الحركة، سريع الهيجان، أمَّا أذناه المتهدلتان فلم يتصوّر أحد انهما تقفان في مقدمة رأسه وكأنَّهما القرون الصلبة. كان إذا سمع صوتاً، مهما خفي الصوت، تشرئب أذناه بطريقة تثير العجب، أمَّا عيناه فكان فيهما حَوَل أو بقايا دموع، حتى يظن مَن يتطلع إليه ان غباشاً يمنعه من الرؤية، وقد وصف أحد الرعاة الكلب بأنَّه «أعمى ولا فائدة منه» وقال آخر «إنَّ له أنفاً يشبه أنوف كلاب الصيد».

كَبُرَ بسرعة، وأكثر مما توقع له معظم الذين رأوه صغيراً. كان يكبر كل يوم، وكان يُصاب بلحظات طويلة من الجنون، ولا أحد يعرف متى أو لأي سبب. وفي بعض الأوقات كانت الشكوك تراود ذلك الشيخ الذي اختاره ليكون صديقه في هذه الفلاة الكبيرة، لماذا اختاره من بين ستة جراء؟ ما الذي أقنعه انه

أفضلها وانه أصلحها له؟ ان شيئاً ما دخل في قلب الرجل فجأة. نظر إلى الجراء، واحداً بعد آخر، قلبها، واختاره. لم يكن أكبرها أو أكثرها وسامة، ولكن شيئاً ما قال له ان يختاره.

لم يعطه في البداية أي اسم، ولم يمهله سوى ثلاثة أيام قطع بعدها الجزء الأكبر من ذيله، لكي يكون أكثر شراسة، كما سمع وعرف من أهل القرية، أمّا مسألة تدريبه على أن يكون معه وان يسمع كلماته ويفهمها فقد استغرقت زمناً طويلاً!

في وقت متأخر أصبح اسمه الصل، وقد انزلق عليه هذا الاسم بشكل خفي وغامض. أمّا الأسماء الأخرى: المقطوع، الأشهب، الأعور، الجنيّ، فقد تراجعت واحداً بعد الآخر حتى استقر على هذا الاسم. ربما كان الدافع في ذلك الزحف الملعون الذي يرميه في مقدمة شلعة الغنم بعيداً عنها، لكن في موقع يراها كلها.

ان حياة الكلاب وتصرفاتها من الغرابة إلى درجة تثير في نفس الانسان أعظم الأسئلة وأخطرها!

لم يتعود بسرعة، لكن عندما بدأ يتعود استقرت تلك العادات في عقله بشكل أقرب إلى الغريزة. أمّا الكلب الآخر، والذي كان يكبر الصل بسنتين فلم يعد شيئاً بالنسبة للشيخ بعد أن بلغ الصل شهره الثامن. بدا أكبر حجماً وأكثر قوة وانتباهاً، وبدا وكأنّه مسؤول عن كل شيء ولا يثق إلاّ بما يفعله.

ينام عند بوابة الحظيرة، وهذا المكان اختاره لنفسه ولم يختره له أحد، وكان قبل ان يطلع الفجر، وبطريقة عجيبة، يبدأ تلك الحركات الرياضية المضحكة: يزحف على بطنه مسافات

طويلة ويداه ممدودتان وتشكلان مجاديف قوية تسحبانه بآلية سريعة، وبعد تلك الحركات يبدأ يدور دورات سريعة أقرب إلى الجنون. كان يدور حول نفسه، وكأنَّه يلاحق ذيله، وكلما رأى الذيل المقطوع يبتعد، يسرع في دورانه، وكأنَّه سيدركه في اللحظة التالية، واذا كان الشيخ قد أحبَّه بسبب غامض، فإنَّ هذا السبب ذاته جعله شديد الاقتناع بأهميته وقدرته، رغم ضحكات السخرية التي كان يطلقها الذين يرونه يدور بتلك الطريقة. أمَّا الهمسات فقد تزايدت لتصبح حديثاً علنياً واضحاً: ان صاحب الغنم سوف يستغني عن الشيخ بعد أن أصبح عاجزاً، وبعد وقوع حوادث سرقة او ضياع متكرر.

حياة الشيخ والصل تكتسب بمرور الأيام تلك الخاصية النادرة، والتي قلّما تجتمع لاثنين، حتى لو كانا من البشر: يتحدثان، يفهمان بعضهما بأقل الاشارات وأكثرها خفاء، يعرفان متى يجب ان تبدأ الرحلة ومتى يجب ان تنتهي. أمَّا في أيام الشتاء الباردة، قبل سقوط المطر، وقبل ان تجن الطبيعة وتغير جلدها، فقد أصبح الصل أكثر قدرة من الشيخ على فهم أسرار الكون، خاصة وان الزكام المرافق لخشّة الصدر لم ينته عند الشيخ وانما أخذ يزداد بتقدّم العمر.

واذا بدا الشيخ أكثر ثقة بنفسه، وحتى اكثر شباباً، فقد حرص على ألاَّ يتحدّث عن الصل، لكن، والأيام تمضي، والرعاة الآخرون يتابعونه ويرقبونه، اكتشفوا فيه صفات لا تتمتع بها كلاب الحراسة الأخرى. كان قليل الحركة، كثير الصمت، وكان حازماً الى درجة ان طريقته في النظر إلى الغنم المتأخر، او دفعها اتسمت بالرهبة والخوف. لكنه لم يكن يفعل ذلك إلاَّ في

الحالات النادرة، واذا تعوَّدت معظم كلاب الحراسة ان تقف على جوانب الغنم أو في مؤخرتها لتحرسها وتدفعها، فقد كان الصل يفضّل البقاء في المقدمة، ليس في أي مكان من المقدمة، وانما في مكان مرتفع، وعلى مسافة بعيدة نسبياً. وهذه الطريقة التي أخافت الشيخ في البداية وجعلته شديد الحذر من «ابن الملعون»، لأنَّه في بعض اللحظات يذهب إلى مسافة أبعد مما يرى الشيخ أو يطيق ـ هذه الطريقة جعلته يفكّر أكثر من مرة بالتخلص منه، لأنَّ الغنم تخاف الصوت، وتخاف من تلويحة اليد، وتخاف ايضاً من شراسة بعض الكلاب وهي تعضها من أرجلها أو جنوبها لتدفعها الى الحركة. أما ان يكون الصل على هذه المسافة، وينظر إلى القطيع هذه النظرة المتكبرة فقد جعلت الشيخ يضربه ذات يوم بمقلاعه وينتزع عينه، لكن الحياة تعلّم الكثير، إذ لم تمضِ شهور حتى أصبح الصل كل شيء، وعندها أصبح الشيخ ينام او يغيب في أحلام بعيدة، كان في بعض الحالات ينسى أنَّه راع لقطيع من الغنم ما دام الصل موجوداً!

القصص التي تروى عن مكر الصل وقدرته ونشاطه لا تحصى، وأحاديث الرعاة يختلط فيها الحسد بالتقدير. أمَّا عن المرات التي سافر بها الصل بالطائرة ليعود بقطعان جديدة، ومن أماكن بعيدة، فقد أصبحت مثاراً للتندر والسخرية. ما يكاد ينعقد مجلس حتى تنهال الأسئلة بطريقة ماكرة.

ـ «مَن ركب الطائرة اكثر: الصل أم الشيخ؟»: «هل يستطيع المختار ان يدفع ثمن بطاقة الطائرة أم يأخذونه مع الصل؟».

ـ «اذا كان الصل يركب الطائرات فلماذا تستغربون عندما ترونه مجنوناً ومتكبراً هكذا».

انقضت ايام كثيرة ونوع من الحياة أقرب إلى اللذة يطغى على حياة القرية، ويجعل لها طعماً خاصاً، حتى وقع ذلك الشيء:

في أحد الأيام اختفى الصل. بحث عنه الشيخ طويلاً. بحث عنه في كل مكان. سأل عنه جميع الناس. انتظر أن يعود في المساء. فكَّر ان احداً سرقه او قتله، لكن لم يجد له اثراً. ومع ذلك لم ييأس لحظة واحدة. كان متأكّداً انه سيجده.

في اليوم الثالث، وفي خبرة من تلك الخبرات التي ترتادها الغنم، ولا يعرف كيف لمعت هذه الفكرة في ذهنه هكذا، لكنه كان متأكّداً أنَّه سيجده هناك.

قبل أن يطلع الفجر كان الشيخ بكل قوته يحاول اخراج الصل من الخبرة، كان غارقاً في الماء حتى عنقه، كان رأسه فقط فوق الماء، كانت عيناه حمراوين ولسانه متدلياً، وكان بين الحياة والموت!

بذل الشيخ محاولات لا حصر لها من أجل اخراجه من الماء، لكن جميع المحاولات انتهت إلى الفشل، اذ ما يكاد يخرجه حتى يتداعى مرة أخرى ويغرق نفسه في الماء باستسلام بائس!

عصر ذلك اليوم انتهت محاولات الشيخ، وانتهى الصل.

بعد يومين كانت القرية كلها تسير بصمت في جنازة الشيخ!

جاء في كتاب الحيوان للجاحظ:

«... وذكر أبو عبيدة النحوي، وابو القفطان سحيم بن حفص، وابو الحسن المدائني، وذكر ذلك عن محمد بن حفص، عن مسلمة بن مارب، وهو حديث مشهور في مشيخة أصحابنا من البصريين، ان طاعوناً جارفاً جاء على أهل دار، فلم يشك أهل المحلة أنه لم يبقَ فيها صغير أو كبير، وقد كان فيها صبي يرتفع ويميل ولا يقوم على رجليه، فعمد مَن بقي من المطعونين من أهل تلك المحلة إلى باب تلك الدار، فسدّه.

فلما كان بعد ذلك بشهور، تحول فيها بعض ورثة القوم ففتح الباب، فلما أفضى الى عرصة الباب، اذا هو بصبي يلعب مع اجراء كلبة، وقد كانت لأهل الدار، فراعه ذلك، فلم يلبث أن أقبلت كلبة كانت لأهل الدار، فلما رآها الصبي حبا اليها، فأمكنته من اطبائها بمصها فظنُّوا أنَّ الصبي لمَّا بقي في الدار، وصار منسياً، واشتدَّ جوعه، ورأى اجراءها تستعين من اطبائها، حبا اليها، فعطفت عليه، فكما سقته مرة أدامت ذلك وأدام هو الطلب، والذي ألهم هذا المولود مصّ ابهامه ساعة يُولد من بطن أمه، ولم يعرف كيفية الارتضاع، هو الذي هداه إلى الارتضاع من أطباء الكلبة، ولم تكن الهداية شيئاً مجعولاً في طبيعته لما مصّ الابهام، وحلمة الثدي، فلما أفرط عليه الجوع، واشتدت حالته

وطلبت نفسه، وتلك الطبيعة فيه، دعته تلك الطبيعة وتلك المعرفة إلى الطلب والدنوّ، فسبحان من دبَّر هذا، وألهمه وسوّاه.. ودلَّ عليه».

لماذا نشأ هذا العداء بينه وبين الانسان ومتى؟ ولماذا تُروى القصص الكثيرة عن الشؤم الذي يحمله أينما حلّ؟

لا أنكر ان مشيته شديدة الاثارة، وهي أقرب إلى التكبُّر، ولا أنكر انه يحب البحث لساعات طويلة في المزابل، وقد يقضي عمره هناك... أمّا صوته فقد كان صوتاً كريهاً في البداية، لكن ما لبث أن أصبح يشبه أصوات طيور كثيرة، ليس أجمل منها بطبيعة الحال، لكن ليس أكثرها قبحاً. ان الأصوات والأشكال مخترعات الانسان وأفكاره يضفيها على المخلوقات لسبب أو آخر.

ان هذه الأمور معروفة. أمّا انه طير ميّال الى السرقة، ويسرق جميع الأشياء التي يقع عليها نظره، التي يقدر على حملها، سواء أكانت نافعة أم لا، فأمر يحتمل النقاش الطويل، لأنَّ بعض الناس يروون قصصاً كثيرة عن ذلك، وأُناس آخرون يبتسمون ابتسامة أقرب إلى الشفقة وهم يسمعون تلك القصص، ويعزون المبالغة التي تميّزها إلى نوع من العداء بينه وبين بعض الناس، خاصة أولئك الذين يملكون أشجار الجوز. ان لهذا الطير غراماً خاصاً بالجوز ويفضله على أيّ طعام آخر، واذا كان كل طير يحب لوناً من الطعام ويفضّله على غيره، فإنَّ هذا من حقه ولا يمكن أن يوجه اليه اللوم بسبب ذلك!

لا يتخلّى ابداً عن مسافة الأمن الضرورية بينه وبين الناس، وهذه المسافة لا تُقاس بالأمتار أو الخطوات وإنّما لها مقياسها الخاص، وهي تختلف من انسان لآخر. المسافة بينه وبين الفلاح لا تزيد عن بضعة أمتار أغلب الأحيان، أمّا تلك التي تفصله عن الصيادين فإنّها كبيرة إلى درجة لا يدركها إلاّ مَن جرَّبها. وبالرغم من ان لحمه لا يؤكل، فقد ترسب في أعماق الصيادين شموران مختلفان، بعض الصيادين لا يكاد يراه حتى تظلم روحه ويمتلىء احساساً بالخيبة، وقد يعزو إليه سبب الفشل الذي لاقاه في يومه ذاك. وبعضهم لا يكاد يعتبر المسافة بينهما كافية، وبطريقة مليئة بالمكر، حتى يطلق عليه النار. أمّا عد الطلقات الخائبة التي أطلقت على الغربان فلا يحصيها أحد... لكثرتها.

ذات يوم قرّرت أن أقضي طوال بعد الظهر في مراقبة زوج من الغربان كان لهما عش على شجرة جوز في نهاية البستان المجاور للبيت الذي أسكنه. مثل هذه العملية لا تروق لإنسان آخر، وربما لم تكن تروق لي لولا حالة الضجر التي ملأتني في تلك الفترة، بعد ان سمعت قصة عن رجل احترقت زوجته، وكان يسكن في حيّنا. والقصة خلّفت أسى كبيراً في نفوس الكثيرين وقتاً طويلاً، ليس حزناً على المرأة المحترقة فقط، بل لأنها تركت ستة أطفال، كانت الكبيرة فتاة لا تتعدى العشر سنين. ورغم ان الحادثة كما رواها الناس كانت قضاء وقدراً، فإنَّ همساً انتشر في وقت لاحق، يؤكّد ان المرأة أحرقت نفسها بعد أن يئست من الحياة القاسية التي كانت تعيشها.

كلما أتذكر هذه القصة أحسّ بحزن جارف يملأ نفسي، رغم أنّي لا أعرف هذه العائلة، ورغم ان ما وقع لها لا يمثّل قمة

المأساة في هذه المدينة الكبيرة التي تقع فيها كل يوم عشرات الحوادث، حوادث الانتحار والقتل والاعتداء، ولا أعرف أية مصائب أخرى!

لو انتهت القصة عند هذه الحدود لطواها النسيان بعد فترة من الزمن، كما يطوي عشرات القصص الأخرى، لكن قبل أن ينقضي الشهر الثاني على الحادثة تزوَّج الرجل، واشترطت الزوجة الجديدة، لكي تقبل به زوجاً، أن يتخلَّى عن الأولاد، وكان أصغرهم لا يتجاوز الأربعة شهور. ودون تردُّد وافق وتزوّج، وانتشر خبر زواجه بسرعة أكبر مما انتشر خبر موت الزوجة. أمَّا أين ذهب الأولاد وكيف تصرَّف بهم فإنَّ الناس يختلفون في رواية التفاصيل. قيل انه خلال اسبوع لم يفعل شيئاً سوى ضربهم، حتى الصغير، وكان يريد بهذه الطريقة ان يهرّب الأطفال ويذهب كل واحد إلى أي مكان يختاره في المدينة الكبيرة. وقيل انه ترك الأطفال يومين دون طعام بحيث ان الصغير مات بعد ان انتقل إلى بيت أحد الجيران، وكان أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، ولم تفده الرعاية المتأخرة التي قُدّمت اليه. وقيل ان أهل الزوجة جاءوا وأخذوا الأطفال بعد ان سمع عدد كبير من الجوار بكاءهم وأبلغوهم بذلك.

أمَّا حين سُئل الرجل عن الأولاد، وتمَّ ذلك بعد الزواج، فقيل ان الحزن بدا واضحاً على وجهه، وكاد يبكي، وأكَّد ان أهل الزوجة سرقوا الأطفال أثناء غيابه، وانه لم يقوَ على الحياة يوماً واحداً في البيت الفارغ، الأمر الذي اضطره للزواج خوفاً من الجنون أو الانتحار!

هذه الحادثة، أو ربما غيرها، ولدت في نفسي ذلك الشعور

العميق بالحزن. وفي ظهيرة ذلك اليوم من أيام آب تخلّيت عن عادتي فلم أنم، وجلست قرب الشباك الواطىء المطل على البستان أرقب الأشياء بصمت أخرس، واعترف أنّني أكثر ما استهواني وشغلني عن كل ما حولي زوج الغربان: كانا لا يتوقفان لحظة واحدة، كانا لديهما شيء يفعلانه. واذا تخلّيت عن الكثير من التفاصيل، الأقرب إلى الحماقة، فقد رأيت شيئاً عجيباً، رأيت الغرابين بعناد أقرب إلى الجنون يعاركان حبات الجوز، حتى اذا حصل أحدهما على حبة يأتي الآخر ويقشرها بكثير من الصبر والمثابرة، فإذا انتهى أخذها وطار عالياً. كان طيرانه مدوماً وثقيلاً، وتصوّرت في البداية انه ينقلها الى العش، لكن عندما أخذت زاوية أخرى مقابل شجرة الجوز لأرى كيف تنتهي اللعبة، كنت ألمح الغراب يبتعد حتى يصل الى بداية السفح القريب، ومن ارتفاع شاهق يلقي بحبة الجوز فإذا تحطّمت من أول مرة حمل أجزاءها، جزءاً وراء آخر، وعاد بها إلى العش، أمّا اذا لم تتحطم فكان يلتقطها مرة أخرى ويفعل ما فعل في المرة الأولى. قد يتكرّر الأمر عدة مرات حتى تتحطّم حبة الجوز. فعلا ذلك مرات كثيرة. وفي احدى اللحظات رأيت الغرابين يقطفان عدداً من حبات الجوز ويدفنانها في زاوية البستان، قريباً من السور، ولا أبالغ اذا قلت انهما اختارا أصعب الأمكنة وأكثرها خفاء.

راقت لي اللعبة كثيراً وأزالت من نفسي بعض الأحزان، وتعلمت ان كثيراً من الطيور تتمتع بذكاء كبير!

أمّا ما حصل بعد ذلك فكان أعجب. يبدو أن صاحب البستان ضاق بهذه الغربان وتخيّر وقت الغروب لكي ينتهي من تدمير عشهما، لأنّه اذا استطاع تدمير العش فلا بدّ ان تهجر

الغربان البستان وتبحث عن مكان آخر.

ربَّما فكَّر في الأمر وقتاً طويلاً، لأنَّه حين تخيّر ذلك الوقت، وحين ربط نفسه بحبل ووضع في وسطه عصا قصيرة وقوية، فلا بدَّ ان يكون قد فكَّر بالأمر واستعد له.

كان العش في مكان عالٍ من شجرة الجوز، وكان الوصول إلى هناك من الصعوبة بحيث ان الغرابين، وهما يحومان حول الشجرة ويقتربان ويبتعدان عن العش، كانا من الثقة والفخامة الى درجة انهما نظرا الى هذه المحاولة نظرة مليئة بالسخرية. كانا متأكّدين ان المكان حصين بحيث لا يمكن ان يصله انسان. أمّا وذلك الفلاح يزحف بعناد ويحرك الحبل بطريقته الماكرة، إذ كان يرتفع ببطء وبثبات. والغرابان اللذان كانا يقتربان ويبتعدان بتلك الطريقة الفخمة، وهجماتهما تقترب وتبتعد وتمتلىء بالسخرية والتحذير، ما لبثا ان أحسَّا بالخطر وبذلك الاصرار الذي يملأ الرجل. عند ذاك بدأت الدائرة التي يدوران فيها تضيق، وبدأت صيحاتهما تتسم بذلك المقدار الكبير من التحذير. والرجل بجسمه النحيل، بصعوده الواثق، يرتفع، يقترب أكثر فأكثر من العش.

كنت أرقب كل ذلك بصمت وانفعال. كنت في بداية الأمر محايداً تجاه هذه المعركة التي تجري أمامي، وكانت القصص الكثيرة التي سمعتها عن الغربان تثير في نفسي الحذر ونوعاً من عدم الاحترام، وقد أستطيع ان أقول: الاحتقار. لكن والرجل يرتفع ودورة الغربان تضيق، وتلك الرائحة التي هبَّت مع الغروب، بدأت أشعر ان شيئاً خطيراً لا بدَّ ان يقع. كنت أخاف على الرجل أن يسقط، كنت أخاف ان تلتوي شجرة الجوز النحيلة

وتتقصف تحت ثقله، كنت أخاف ان يهوي العش من الاهتزاز القوي وتتساقط الفراخ.

الظلمة تقترب بنعومة خفية، الرجل يرتفع، الغربان بصرخاتها وطيرانها الخشن تدوّم بطريقة أقرب إلى التحدّي. أمّا عندما بدأت صرخات الفراخ الصغيرة في العش ترتفع فزعة مستغيثة، فقد شعرت ان شيئاً أقرب إلى الخطر لا بدّ ان يقع.

في تلك اللحظات المليئة بالتوتر والخوف والمعزولة عن لحظات الزمن العادية بدأ شيء عجيب:

صرخات متوجعة قاسية تملأ الدنيا، احد الغرابين دار حول رأس الرجل دورة مليئة بالعنفوان والبسالة، وخفق بجناحيه بصخب أقرب إلى الدوي، وارتفع حتى استقر في العش. اما الغراب الآخر فقد بدأ يدور حول الشجرة بين العش ورأس الرجل، وبدا بحركته وكأنّه حجر مربوط بخيط ويدور في تلك المسافة التي تضيق كل مرة مع الامتداد البطيء والارتفاع.

كان الرجل مصراً، كان واثقاً وحذراً. والفراخ التي أصابها الفزع بدأت صرخاتها تتباعد وتأخذ نغماً مختلفاً، أمّا الغراب الذي كان يدور فقد أصابه الجنون، وكان جنونه يتصاعد ويحتد مع كل خطوة جديدة.

ان اية كلمات لا تستطيع أن تعبّر عن اللحظات الأخيرة، فعندما اقترب الرجل، ولم تبقَ إلاّ خطوة واحدة وامتدادة اليد، جنّت الدنيا وانقلب كل شيء. لم تعد الفراخ تعرف التوقف عن الصراخ الفزع، ولم يعد الغراب الكبير في العش قادراً على البقاء بذلك الوضع الساكن. أمّا الغراب الآخر فقد تخلّى عن الدوران

ليبدأ معركة جديدة. أخذ ينقضّ بشكل عمودي على الرجل، ينقضّ عليه مباشرة، كان يضربه بجناحيه، يضربه بجسده كله، وكان ينقر ويخرمش، والرجل بين ان يواصل صعوده، وبين ان يدافع عن نفسه. وفي لحظة أقرب إلى الظلمة انتهى كل شيء: انقضّ الغراب، وبطريقة ما، لم تفهم ابداً حتى الآن، انتزع عين الرجل. والرجل بين الاصرار والتحدّي انتزع عصاه القصيرة القوية وهوى بها. وفي لحظة واحدة كانت صرختان: صرخة الرجل وصرخة الغراب الذي سقط من قوة الضربة.

في اليوم التالي نقلت الأنثى الفراخ إلى مكان آخر. وفي اليوم نفسه كانت تبحث بمخالبها عن حبات الجوز بين الأشواك، في زاوية البستان، وتنقلها واحدة بعد أخرى الى مكان آخر.

٦

هجمت أيام دافئة في آذار، وحملت معها روائح الأرض وتفتح الطبيعة فازدهرت بعض الورود المبكرة وبدت أوراق الأشجار الصغيرة المائلة الى الحمرة مفتونة بتدفقها المبكر وأضفت على الجو سكينة أقرب إلى الخدر.

قال أحد الرجلين المسنّين المتدثرين بعباءتين من الوبر وهما يطلان من الشباك العريض على الحديقة الواسعة:

ـ سيكون صيف هذه السنة حاراً. لأنَّ دفء آذار جاء قبل أوانه. قال الرجل الآخر بصوت خافت مليء بالحشرجة:

ـ دفء آذار خداع.

قال الأول:

ـ العادة ان بعد آذار شتاء آخر، لكن هذه المرة يبدو ان الصيف قد بدأ ولن يأتي الشتاء مرة أخرى.

ـ ألم تسمع بالمثل الذي يقول: خبىء حطباتك الكبار لعمّك آذار؟

ـ ولكن ألا ترى الدفء الآن؟

ـ مرَّت أيام دافئة كثيرة في سنوات سابقة، لكن بعدها جاء البرد والطوفان، وسقط الثلج في نيسان.

ـ يبدو ان دورة الطبيعة تغيَّرت كثيراً ـ أيام كنا صغاراً كان

البرد لا يتوقف طوال الشتاء، وكنا نزيح الثلج عن أبواب البيوت في نيسان.

ـ أيام قديمة ومضت.

ـ صحيح، ولكن مَن يدري!

واستمر الرجلان يتحدثان برتابة أقرب إلى المجاملة. لم يكونا متحمسين لشيء، وحتى الدفء الذي يعبق بين فترة وأخرى كان يبدو عادياً رتيباً. أمّا حين دخل الخادم حاملاً القهوة فقد خلق تغييراً في الجو.

قال الضيف:

ـ الله يعطيك العافية يا سالم...

توقف قليلاً، تغيّر صوته وأضاف:

ـ لقد قمت بالواجب كاملاً. لولاك، لكان الأمر صعباً.

قال الخادم كلمات غامضة أقرب إلى الغمغمة، مع حركات بسيطة تحمل معنى التواضع والحزن في الوقت نفسه.

الرجلان لا يزالان يرقبان الحياة من وراء الزجاج، يرقبان الأشجار والزهور والهواء الخفيف الذي يُداعب الأوراق الغضة المتفجرة، ويغيبان في ذكريات بعيدة، يتذكران أشياء لا حصر لها.

في الحديقة، كان عصفوران يطيران بتناغم لذيذ. كانا يطيران بتلك الطريقة الشيطانية، يطيران ويحطان بعبث أقرب إلى الحماقة. كانا يفعلان ذلك بطريقة لا يمكن أن تبقى سراً أو تخفى على أحد، وما دام الرجلان لا يجدان الكثير ليقولاه فقد شعرا أنّهما مرتبطان بطريقة آلية إلى هذين العصفورين. كانا يراقبان،

يتابعان، يتبادلان النظر دون كلمات. وحتى الأفكار والكلمات التي كانت في الحناجر تراجعت. ان أشياء طريفة تجري أمامهما الآن. والعصفوران في هذا العبث لا يتوقفان، لا يهدآن، كانا يريدان أن يندمجا بالطبيعة، بالكون، ان يصرخا بقوة، وكانا يريدان ان يقولا كم هو لذيذ الدفء، وكم هي جميلة الحياة!

كان الخادم يراقب من بعيد، بعد ان جلس في الشرفة الخارجية. وبين فترة وأخرى يطل على الرجلين، كان يريد ان يتابع شيئاً يحسه ولا يعرفه. لم تكن لديه أية أفكار، أو كلمات. لكن كان يحس كل شيء حوله يتفجّر، يصرخ. وكان يحس ان زلزالاً يمكن ان يقع.

الرجلان يرقبان، العصفوران يطيران بهياج. الخادم يفتح منخريه بشهوة ويتمنى لو يتعرى، لو يتحد بشيء ما... بالطبيعة.

صرخ صاحب الدار ليتغلب على جو الرتابة:

ـ سالم.. قهوة يا سالم.

وحمل سالم نفسه من مكانه بقوة، صنع القهوة وعاد بها على مهل، قال الضيف:

ـ لولاك، يا سالم لخربت الدنيا.

هزَّ سالم رأسه بتواضع وخجل.

قال الضيف يخاطب صديقه:

ـ سالم كان الأول والأخير، حتى الذين دفعنا لهم الفلوس ليقوموا بالواجب لم يفعلوا شيئاً!

وبهدوء انسحب سالم إلى الباحة الخارجية.

كانت الطبيعة بتدفقها السخي تملأ الدنيا برائحة خاصة،

وكانت الأشجار بانطلاقها الأقرب إلى الجنون تتغير كل لحظة. أمّا العصفوران فلم يتوقفا عن المداعبة لحظة، كانا يواصلان لعبة جميلة.

في لحظة ما، بطريقة ما، وبتلك السحبة المجنونة العابثة المليئة، ولا يتذكر سالم بدقة كيف حصل الأمر، وكان العصفوران يطيران بشكل سريع، وكأنّهما في سباق أهوج، أو كأنَّ رهاناً بينهما، في تلك اللحظة المليئة بمعانٍ لا يمكن التعبير عنها، وبسرعة غامضة كأنّها الومض، تصوّر أحد العصفورين انه يستطيع اقتحام كل شيء، وفجأة، وبطريقة مليئة بالبسالة والرعونة وفي نطاق اكتشاف أماكن جديدة، وبطيران يشبه النيازك، فجأة... اصطدم احد العصفورين بذلك الزجاج اللماع الشفاف الصافي الذي كان يطل من ورائه الرجلان، وسقط.

قال أحد الرجلين وهو يرقب العصفور حين اصطدم بالزجاج وسقط:

ـ ومن الحب ما قتل!

ضحك الرجل الأوّل وردّد وراءه:

ـ نعم... ومن الحب ما قتل!

سقط العصفور على الأرض. كان في حالة من الفرح المتألم أقرب ما تكون إلى الضحك او المضاجعة. كان يتقلب في كل لحظة وكأنّه يفترس كل شيء. أمّا العصفور الآخر، الذي بدا له أن الأمر لا يتعدّى تلك الدعابة العابثة المجنونة، فقد أصابه الذعر، أحسَّ ان شيئاً ما قد حصل.

كل شيء وقع فجأة وبسرعة أقرب إلى الخيال. دار

العصفور الآخر، وقف، انتظر، اقترب، مدَّ منقاره، حاول بمخالبه، والعصفور الذي تلقَّى الضربة يدور بتلك الطريقة التي تشبه ذبابة مذبوحة. كان يدور دوراناً مرعوباً يائساً. وبعد لحظات بدأت حركاته تخفت إلى أن تلاشت. قال الرجل الأول:

ـ هل رأيت ماذا يصنع العشق؟

قال الرجل الثاني وهو يضحك بصخب:

ـ كما قلت: ومن الحب ما قتل!

كان سالم يسمع، وبهدوء، نهض ليتأكّد ان كان الطير ما يزال حياً أو مات. كانت الجثة الصغيرة ما تزال دافئة حين استقرت على راحة يده، لكن الحياة فارقتها، هزَّ العصفور جسمه، مرة ثانية، لكن الحياة كانت قد تخلَّت عن ذلك الجسد، وتذكَّر سالم الأيام السابقة، خاصة يوم الأحد من الأسبوع الفائت.

كان الضيف يسأل أولاده باهتمام:

ـ هل صليتم عليها في المسجد؟

وحين يؤكّد له الأولاد ذلك يسأل من جديد:

ـ مَن سار في مقدمة الموكب؟ كيف كانت تبدو الوجوه، كيف كان صوت المرتّل؟ مَن هم المدفونون إلى جانبها؟ وهل جاء أحد لا أعرفه؟ وهل استغرقت العملية وقتاً طويلاً؟

كان الرجل يجلس في منتصف الصالون الكبير ليتقبل التعازي. كان بادي الحزن وبادي الحزم، لكن كان شديد التيقُّظ ايضاً، كان يسأل عن كل الذين جاءوا، وكان يسأل أكثر من ذلك عن الذين لم يأتوا.

وكان يردّ بصوت صلب بين فترة وأخرى:

«وإذا جاء أجلهم..».

تذكّر سالم ذلك كله، وما كاد يحمل العصفور بين يديه ليلقيه خلف السور حتى سمع اصطداماً قوياً فالتفت: رأى عصفوراً آخر يسقط في المكان نفسه. تطلع بخوف، رأى المشهد نفسه، ومرت في ذهنه الصور نفسها. لكن لم يستطع أبداً أن يقدر ان كان العصفور الثاني هو العصفور نفسه الذي كان يطارد الأول، أم ان عصفورين جديدين كانا يعبثان وحصل الذي حصل!

جاء في كتاب الحيوان:

«وفي الجرذان جنس له عبث بالنقود والشفوف والدراهم وخشخشة الحلي، وذلك انها تخرجها من جحرها في بعض الزمان فتلعب عليها وحواليها، ثم تنقلها واحداً واحداً، حتى تعيدها عن آخرها إلى موضعها، فزعم الشرقي ابن القطامي، ان رجلاً من أهل الشام اطلع على جرذ يخرج من جحر ديناراً فلمّا رآه قد أخرج مالاً صالحاً استخفه الحرص فهمَّ أن يأخذها، ثم أدركه الحزم وفتح له الرزق المقسوم باباً من الفطنة. فقال: أنا أمسك ان آخذها ما دام يخرج، فإذا رأيته يدخل فعند أول دينار يغيبه ويعيده الى مكانه أثب عليه فاجترف المال. قال: ففعلت، وعدت إلى موضعي الذي كنت أراه منه، فأقبل يخرج ما شاء الله تعالى، ثم أخذ ديناراً فأدخله، فلما عاد ليأخذ ديناراً آخر فلم يجد الدينار، أقبل يثب في الهواء، ثم يضرب بنفسه الأرض حتى مات.

وهذا الحديث من أحاديث النساء وأشباه النساء».

ركس

كلب صغير أبيض بلون الثلج، شعره كالخراف الصغيرة، بنعومته المتجعدة يتدلى على عينيه اللتين لا تظهران إلاً كشقين صغيرين متداخلين بمعالم الوجه. أمّا أبرز شيء فيه فذلك البوز الدقيق ثم المقطوع فجأة لينتهي بلون بين الحمرة والسواد، وهذان اللونان قلّما نجدهما مجتمعين بذلك الانسجام الأخاذ!

يقضي ركس معظم وقته في البيت، ولا يُسمح له بالخروج إلاّ نادراً، وبصحبة أحد. وهذه الرياضة جزء من حياة القرية الصغيرة، إذ لا يكاد يخرج بصحبة الميجر حتى يصبح موضع اهتمام الناس ونظراتهم ثم أحاديثهم. كيف يتصرف، كيف يرفع رأسه عالياً ليتمعّن بوجوه الناس الذين ينظرون اليه، كيف يرفع ساقه ليبول. اما أكثر ما كان يثير اهتمام واستغراب الناس فالطاعة التي يكنّها للميجر، إذ لا يكاد يصرخ عليه تلك الصرخة، القصيرة الحادة، حتى يصيبه الذعر، فيتوقف عن أي شيء كان يفعله. أمّا اذا طلب منه العودة أو أن يكف عن النباح، فلم يكن يتردّد ابداً.

هذه العلاقة، وأسباب أخرى ايضاً، جعلت نظرة سكان القرية إلى الميجر يمتزج فيها الخوف بالتقدير، ويشوبها الغموض أيضاً، حتى أصحاب كلاب الصيد كانوا يستغربون هذه الطاعة، ويتمنون في أعماقهم لو استطاعوا تدريب كلابهم بهذه الطريقة،

ويتذكرون عشرات الحماقات التي ترتكبها تلك الكلاب تفوّت عليهم صيداً مؤكّداً!

هناك عشرات من الأسئلة ترود أذهان الناس، ولم يكن أحد يجرؤ على طرحها إلاّ في حالة واحدة حين يكون الكلب بصحبة حارس الميجر. عند ذاك كان بعض الناس يتعمد اظهار اعجابه بالكلب، ويفعل ذلك بصوت عالٍ أو بحركات من التحبُّب او بالسير مسافة طويلة قريباً من الكلب. وفي اللحظات المناسبة، وكانت تحصل بشكل ما، تطرح بعض الأسئلة: كيف استطاع الميجر تدريب الكلب بهذه الطريقة؟ أين ينام؟ ماذا يأكل؟ وهل يفهم لغة أخرى غير لغة الميجر؟ والحارس الذي كان يتبسط، بعض الأحيان، ويجيب عن الأسئلة التي يريد، كان يضيف مزيداً من الغموض، ويلقي ظلالاً إضافية أقرب إلى الخيال ليدلل من خلالها على الذكاء الخارق الذي يتمتع به هذا المخلوق، وكيف ان أحاديث طويلة ومستمرة تجري بين الكلب والميجر، وبينه وبين زوجة الميجر، وانه نفسه اذا استطاع أن يفهم سبب بعض الحركات والمواقف الذكية للكلب فإنّه يستغرب أشياء أخرى كثيرة! خاصة تلك الفترة الطويلة التي يتغيبها الكلب في غرفة زوجة الميجر، وكان يلاحظ ان قضايا شديدة الغموض تجري أثناء ذلك!

ولما كان الميجر شخصية مرموقة شديدة الرهبة والصرامة، ويتمتع بقوى خارقة، وهو الذي يتحكم بكل شيء ليس في القرية وحدها، وإنّما في مناطق أخرى كثيرة نتيجة القوة العسكرية التي يقودها، والتي تقوم في أطراف القرية في معسكر خاص بها، فقد كان من عادته ان يستقبل زواره، وهم من الشخصيات المرموقة

في القرية او من الضيوف الذين يأتون اليها لأمور طارئة تتعلق بالأمن وقضايا الحدود وأمور أخرى غيرها. كان من عادة الميجر ان يستقبل هؤلاء بوجود ركس، وكان كثيراً ما قطع الأحاديث التي يخوضون فيها، وانصرف إلى الحديث مع ركس، او إلى تأنيبه وتهديده بطريقة مضحكة، حتى رُوي عن الميجر انه شهر مسدسه أكثر من مرة كوسيلة للتهديد، وفي تلك المرات كان يستعمل اللهجة المحلية التي تعلَّمها، وكثيراً ما فُهمت تلك الكلمات او عبارات التهديد على أكثر من وجه!

فقراء القرية وأغنياؤها نظروا إلى الميجر وكلبه نظرة خاصة، فالفقراء الذين كانوا ينظرون خفية إلى الميجر وكلبه وهم جالسون في المقاهي الضيقة، ويتذكّرون القصص الكثيرة التي يسمعونها من الاثنين، كانوا يقولون: الجرو والذيب. وينشغلون بما هم فيه لكي لا يضطروا لأن يفعلوا مثلما يفعل الأغنياء: ان يقفوا باحترام ويلقوا التحية على الميجر، وهو في مشيته المتباهية سواء حين كان يلبس الشورت ويحمل بيده كرة صغيرة لتدريب الكلب، او حين يكون لابساً ملابسه البيضاء الأنيقة. لم يكن يحفل بتلك التحيات والانحناءات، وكثيراً ما تجاهلها متظاهراً بالتفكير او بمخاطبة الكلب.

والفقراء والأغنياء كانوا يبدون خوفهم اذا حصلت بعض الأمور في القرية، لأنَّ الغضب والتفتيش لم يكن يوفّر أحداً. وفي اللحظات الأخيرة، في نهاية الحملات أو أثناء التحقيق، كان يروق للميجر ان يصطحب معه ركس، ركس الذي كان يتجول في جميع الأنحاء بحرية مطلقة، ويعبث بكل شيء، ولا يتردّد في ان يلمس بلسانه وجوه الناس دون ان يكونوا قادرين على منعه أو

صده، كان جميع هؤلاء يتمنون لو ان الميجر ينظر اليهم نظرته إلى ركس!

حديث القرية والميجر وركس طويل. طويل. ولعلَّ أحداً لا يحب أن يذكر ذلك الحديث كله، لكن جزءاً منه أصبحت القرية كلها لا تتحدث إلاَّ عنه.

في أحد أيام الشتاء الباردة، وكان الوقت عصراً والقرية تغرق في تلك الظلمة المبكرة، كانت أسراب الكلاب التي وُلدت وعاشت في القرية منذ وقت طويل، كانت تلك الكلاب، وفي مثل هذا الوقت من السنة، «تلاحق» بعضها، واذا كان لمثل هذه العملية قوانينها الخاصة، وان تحدّدها الغريزة ولا يخطئها أي كلب، فإنَّ ركس بطريقة ما، لا تزال مجهولة حتى الآن، كان ضمن الكلاب، كان وحيداً بلا الميجر او حارسه الخاص، ودون أية حماية او ميزة من أي نوع.

واذا كانت تلك الكلبة البائسة واقعة في دائرة الحصار التي تعرفها جميع الكلاب وتحافظ عليها باتقان مذهل، فإنَّ ما حصل في ذلك الغروب الشتائي جزء من القانون وتأكيداً له. فالكلاب القوية، المجرّبة، تتمتع بأولوية لا يمكن لغيرها أن يخترقها، أو يتجاوزها.

لكن الذي حصل شيء آخر مختلف، فحين ظهر ركس ولفت نظر جميع الناس، وأخذ الأغنياء يتصرفون على طريقتهم، فإنَّ الكلاب لم تلتفت اليه ولم تحس بوجوده. وكان من الممكن ان تفسح له مجالاً في حلقة الحصار، لكن الذي حصل شيء مختلف، إذ ما كاد يعدو مجنوناً بتلك الحمى مخترقاً الحصار حتى خيَّم جو من الذهول. نظرت الكلاب إلى بعضها ونظرت

اليه، وفي لمح البصر وبطريقة بارعة قبل أن يصل، انقضّ عليه كلب واقتلع الجزء الأكبر من ظهره. وخلال لحظة واحدة ارتمى وهو يعوي بتلك الطريقة المستغيثة البائسة. وواصلت الكلاب لعبتها ضمن قوانينها الخاصة.

أمَّا ما حصل بعد ذلك فإنَّه جزء من تفاصيل الحياة اليومية. صحيح ان الميجر أمر بقتل جميع الكلاب، وجنَّد من أجل ذلك عدداً من الجنود النظاميين. لكن ركس آخر تمَّ احضاره خلال فترة قصيرة، وكان هذه المرة من النوع الكبير. وقد اختلف الناس كثيراً في الدور الذي يقوم به ركس الجديد. قال بعض الناس انه كلب للحراسة، وقال آخر انه لاقتفاء الأثر. وقال غيرهم انه كلب قوي ويمكن ان يقتل ويسيطر على جميع الكلاب الأخرى ويتقدمها. أمَّا حارس الميجر فقد قال كلمات ماكره لم يستطع الناس تفسيرها أبداً، قال: ان زوجة الميجر هي التي اختارته، وانه كلبها وليس كلب الميجر.

أمَّا كلاب القرية فقد استمرت في التوالد من جديد واستمرت تنبح قبل رحيل الميجر وبعد رحيله. وأمَّا ركس الجديد فقد قُتِلَ بظروف غامضة ولم يعرف أحد مَن قتله أو لماذا قُتل!

في ذلك اليوم الشتائي البارد، ومثل عادتي كل خميس، قرَّرت ان أوقد حمام الحطب. انها نزوة لم أكفّ عن ممارستها منذ أيامْ بعيدة، وهي تذكّرني بأشياء كثيرة. بأيام الصغر، وأيام بعيدة حين كنت شاباً وأذهب مع مجموعة من الأصدقاء الى حمام السوق، وتذكّرني ايضاً بروائح أحنُّ إليها لأسباب غامضة!

هذه العادة التي داومت على ممارستها منذ وقت بعيد لا تأخذ أبعادها ولا تكتمل بالنسبة لي إلاّ إذا قمت بكل شيء شخصياً: اكسر الحطب، أجفّفه، أجمع الأجزاء الصغيرة وأجعلها كومة على شكل هرم لكي تسري فيها النار بسرعة، فإذا انتهت هذه المرحلة أنتقي عدداً من الأغصان الجافة المتوسطة الحجم وأضعها متصالبة ومتباعدة بعض الشيء لكي تتخللها الريح وتساعد على سرعة اشتعالها. وفي المرحلة الأخيرة أضع قطع الحطب الكبيرة الثقيلة، وحين تبدأ بالاشتعال أكون مطمئناً لكل شيء وأحس بدفء الماء قبل ان أغادر مكاني خلف الدار باتجاه تلك الزاوية الأثيرة في الصالة الداخلية، والتي أطل منها على كل شيء، وأغرق في التأمُّل والتذكُّر، حتى يحين وقت الاستحمام!

قمت بهذه العمليات الطقوسية بتلذّذ، وكان اثنان من أولادي يراقبان، وأنا في كل حركة أبدو دقيقاً نشيطاً، وان تظاهرت باللامبالاة والآلية، لكن فجأة، وبعد ان اشتعلت النيران

بزهو وبدا نورها الأصفر المزرق يتصاعد، سمعت صوتاً لم أرتح اليه، قلت بصوت فيه غضب:

ـ هذه المخلوقات التعسة لا تبني أعشاشها إلاَّ في أسوأ الأماكن.

وتراءت لي صورة طيور الحمام وهي تبني أعشاشها في المداخن، وكيف انها كلَّفتني الكثير قبل أسابيع وانا أنتزع بقايا العش من المدخنة، لكي أسمح للدخان بالحركة الطبيعية دون عوائق من هذا النوع الأحمق. قلت لنفسي «لا يمكن أن يكون العش وبقايا الخيوط والأغصان الصغيرة عائقاً، ولا بدَّ أن تحترق في هذه اللهب».

تراجعت خطوة وتطلّعت إلى الأعلى لكي أتأكّد من ان الدخان يصعد. رأيت سحابة قاتمة تتصاعد بقوة وانتظام. شعرت بالراحة، وكدت ان أنفض يدي كي أعود إلى داخل البيت، إلى الزاوية، لكنني سمعت صوتاً أقوى من المرة السابقة. توقفت، فركت يديّ وأنا أفكّر، تطلعت إلى الأعلى مرة أخرى. كان الدخان يتصاعد باستقامة اول الأمر ثم يلتوي عندما تضربه الريح. تصوّرت ان غصناً جافاً سقط من فوق، وفي لحظة أخرى تراءت لي مجموعة من بيوض الحمام، لكن صوتاً حاداً مكتوماً ارتفع فجأة. تراجعت إلى الخلف خطوة وأمسكت لا شعورياً بالولدين في حالة من الدفاع عن النفس، وانتظرت.

في لحظة خاطفة مليئة بالصخب رأيت قطاً مذعوراً يندفع بقوة خارجاً من النار. كانت لحظة مخيفة. ارتجفت، واغمضت عيني، وحين فتحتهما مرة أخرى واستوعبت الحالة من جديد لم أصدِّق، لقد استغرق إعداد الحطب وإيقاده وقتاً ليس بالقصير،

وحين بدأت الأعواد الصغيرة بالاشتعال امتلأت رئتاي برائحة الدخان مما اضطرني الى التراجع ومسحت عيني بظاهر يدي لإزالة الدموع الصغيرة التي تكوَّنت. أما حين بدأت الأغصان الكبيرة تشتعل فقد استغرق ذلك وقتاً طويلاً. قلت لنفسي وانا أستعيد هذه اللحظات بتساؤل وذهول: «لا بدَّ ان الخوف منع هذا القط من الخروج والهرب» وبعد لحظات وأنا أفرك يدي لأدفئهما قلت بصوت عال:

. ـ عجيب أمر هذا القط، لقد كان الدخان وحده كافياً لأن يخنقه. فكيف احتمل النار؟

تطلعت إلى الوراء لأرى أين أصبح ذلك القط، حين رأيته يجلس على مسافة قريبة بدا لي منظره مرعباً: كان القسم الأكبر من جلده قد احترق، وكان شارباه وقسم من وجهه قد تغيّر تماماً وأصبح أقرب إلى المنظر المضحك.

خلال لحظات، وبعد ان استعاد القط أنفاسه، وبعد أن مرَّ بلسانه على بعض أجزاء من جسده المحروق، رأيته ينتفض وينهض، تصورت انه سيتوارى لكي يعالج نفسه ويتحمل الآلام بعيداً عن أعين البشر، لكن فجأة اندفع بقوة، أقوى من المرة الأولى، باتجاه النار، يريد أن يقتحمها لكي يرجع إلى حيث كان. لم يكن يأبه بالنار أو الدخان، ولم يأبه لوقوفنا نحن الثلاثة.

بشكل لا واعٍ، حملت حطبة طويلة ووضعتها حاجزاً لأمنعه من التقدُّم، لكن بطريقة غاضبة شرسة تجاوز الحطبة الممدودة وحاول الاندفاع نحو النار بقوة أكبر. وحاولت بدوري، وبقسوة أكثر من السابق، أن أمنعه. واستمرت هذه اللعبة القاسية فترة غير

قصيرة. وفي كل مرة أستطيع ابعاده، وبقسوة، يزداد تحدياً واصراراً على اقتحام النار، إلى ان اقتحمها.

في وقت متأخر، ونحن نشرب الشاي، ونتابع أخبار التلفزيون مثل عادتنا كل يوم، قال لي أحد الصغيرين الذي رأى كل شيء:

ـ هل تفعل كل القطط هكذا يا أبي؟

نظرت اليه طويلاً وأنا أتأمل الحزن العميق الذي يرقد في عينيه وقلت:

ـ ليست القطط وحدها التي تفعل ذلك، ان جميع الحيوانات تفعل ذلك ايضاً.

وساد الصمت. مرَّت في رأسي أفكار عديدة. وكدت أقول أشياء وأشياء، لكن في لحظة وقد امتلأت بشعور المرارة والحقد قلت بصوت هامس:

ـ على الانسان ان يتعلّم ذلك جيداً.

نظر إليّ الصغير باستغراب وسأل:

ـ ماذا قلت يا أبي؟

ـ لا شيء، لا شيء.

وساد الصمت مرة أخرى، ومددت يدي لأهرش رأسي لعلي أستطيع إزالة الأوساخ والأفكر البائسة، والتصرُّف بطريقة تخلّصني من حياة المنفى!

يختلف الصيادون كثيراً حول الزاغ: هل يؤكل لحمه أو لا يؤكل! قال بعضهم إنَّه من فصائل الغربان، وما دامت الغربان تأكل الفطائس وتعيش في المزابل، فإنَّها لا تستحق أن يُنظر اليها. أمَّا الطلقة فحرام بها. وقال غيرهم، الزاغ طير مهاجر، لا يأكل إلاَّ أطيب الحبوب ولا يشرب إلاَّ من أعذب الينابيع، ولذلك فإنَّ لحمه طري شهي، ولا يمكن مقارنته بالغراب أبداً، والطيور اذا تشابهت بأشكالها فإنَّها تختلف بمرعاها، والمرعى هو الذي يحدّد ان كانت تؤكل أو لا تؤكل.

هذا الاختلاف الذي كثيراً ما يظهر بين الصيادين يجعلهم يطوون الموضوع سريعاً ليتحدثوا عن طيور أخرى! لكن في قرارة نفوسهم تكمن الرغبة دائماً لمعرفة هذا الطير.

الشبه بين الاثنين كبير، في الحجم، في الصوت، في طريقة الطيران. أمَّا ما يختلفان فيه، فتلك الظلمة القاسية التي تميِّز الزاغ. إنَّه مثل الليل الداكن الشديد القسوة، وزيادة على ذلك فإنَّ الزاغ لا يكون إلاَّ في أسراب كبيرة، وأكثر ما يظهر في رحلته اليومية خلال فصل الشتاء، في الصباح الباكر وقبيل الغروب.

والصيادون الذين تعوّدوا تجنبه بسبب الشؤم او قسوة لحمه، كثيراً ما نظروا إلى تلك الأسراب السوداء التي ترجع الصباحات

الباكرة أو أمسيات الربيع الباردة، نظرة مليئة بالحسرة والحقد، وتكون هذه النظرة طاغية قوية حين تنعدم الطيور الأخرى او حين تفيض الخيبة. وفي تلك الحالات فإنَّ الحماقة في قلب الانسان لا بدَّ ان تصبح شيطاناً ملعوناً راكضاً في كل الاتجاهات.

يختار بعض الصيادين السنونو هدفاً، لكن السنونو الذي عبر الدنيا كلها ليرجع إلى عشّه، لا يعطي نفسه بسهولة، إذ ما يكاد يمرق في الهواء خالقاً ذلك الحفيف الغاضب حتى ينعطف انعطافة حادة، وكأنَّه توقَّف فجأة او تذكّر أنثاه وعشّه، ولا بدَّ ان يعود. وفي تلك الانخطافة السريعة الحادة تخيب طلقات الصيادين ويصيبهم الحقد، فتشتعل السماء بطلقاتهم المجنونة الهاربة، ومن بين الدخان الأزرق، ورائحة البارود، يجتاز السنونو الطلقات ليواصل رحلة السخرية ويصل أخيراً إلى عشّه!

حالة مثل هذه تولّد جنوناً أقرب إلى سعار الكلاب. حتى الصيادون الذين يتظاهرون بالوقار، ويعرفون ما يؤكل من الطيور وما لا يؤكل، تصيبهم الحمى، فاذا أطبقت الظلمة وثقلت، فإنَّهم يستبدلون الوطواط بالسنونو وبالرعونة الماجنة نفسها تتصاعد الطلقات مرة أخرى، ويظل الأمر كذلك حتى تصيح بنات آوى وتبدأ الظلمة الكثيفة تغطي كل شيء، لتولد في الانسان خوفاً غريزياً من كل ما حوله.

في إحدى تلك المرات التي كانت الخيبة مثل ظل ثقيل تلازم ثلاثة من الصيادين، بعد ساعات من تعب مضنٍ وبعد طلقات بلهاء طارت في الهواء ثم تناثرت على الأرض، في إحدى تلك المرات، وقبل الغروب بقليل، كانت أسراب الزاغ تعود من رحلتها اليومية. كان منظرها من بعيد، وهي تحوم على شكل

نصف دائرة، وتتقدّم ببطء، كان منظرها مثيراً محرضاً. والرجال الذين جلسوا في أماكن متباعدة يدخنون ويتأملون ويجترّون خيبتهم، كانوا ينظرون إلى تلك الأسراب بحسرة وهي تدوّم بعيدة اول الأمر ثم وهي تسفّ وترتفع، مع ذلك الدوي المكتوم الذي يملأ ساحة واسعة.

قال صياد لنفسه: غربان.

قال صياد آخر: عالية ولا تدركها الطلقة.

قال الثالث: ليُقطع رأسي ولأصلب اذا لم أستطع أم أمرغ واحداً او اكثر في التراب.

كانت الأسراب السوداء تتقدّم مليئة بالفخامة والثقة، والرجال الثلاثة، كل من مكانه يتابع هذه الرحلة المذهلة. وكانت الأفكار تتضارب وتتراكض.

في لحظة ما، أطلق أحد الصيادين.

اهتزّت الأسراب وامتلأ الفضاء بصوتها الحاد وطغى على صوت الطلقة.

في اللحظة الأخرى بدا أحد الطيور يترنح في الهواء، وفي اللحظة الثانية فَقَدَ توازنه وبدأ يعلو ويهبط في محاولة مليئة بالإصرار على ان يواصل رحلته. ارتفع أكثر من طيور السرب، ارتفع عالياً ومن ذلك الارتفاع، وبدويّ هائل، سقط على الأرض.

بدا الصياد الذي أطلق عليه النار فرحاً وهو يركض لالتقاطه. كانت المسافة بعيدة، تزيد على المئتي متر. في كل خطوة، وفي كل حركة كان فرحه يفيض، كان يريد ان يكتشف

هذا الطير. وفي كل لحظة، ومع كل خطوة، كان السرب، الذي أجفل من المفاجأة أول الأمر، يتجمع يتكاثف، ثم بدأ بصراخ حاد يهبط إلى الأرض او يحوم قريباً منها حول الطائر الذي سقط، ومع اقتراب الصياد، ومع خفوت حركة الطير، كانت حالة من الجنون تملأ الدنيا.

في طريق العودة، وبانعكاس اضواء السيارات الأخرى القادمة من الجهة الثانية، كانت بقايا دم متخثّر على الوجه وعلى اليدين، وعلى الأذن اليمنى. وكان الصمت يخيم. اما عندما دخل الصيادون الثلاثة الى المدينة، وبدأت الأضواء الوهّاجة تملأ السيارة كلها، فقد قال الذي يجلس في المقدمة:

ـ الله يلعنه من طير، لا يساوي ثمن الطلقة!

قال السائق، وهو يتوقف فجأة:

ـ خفتُ هذه المرة. خفت ان لا يعود أحدنا حياً.

قال الأول:

ـ قلت لكم: إنّه لا يؤكل، نعم لا يؤكل، انه غراب، وحتى لو كان يؤكل فإنّه شؤم!

أما الثالث فكان صامتاً، وكان يحس آلاماً حادة في وجهه ويديه وأذنه، وفي لحظة ما أحس ان معدته تؤلمه وودّ لو يتقيأ!

كانت عيناه مليئتين بالقسوة، حتى وهو يضحك. اما اذا نظر الى أحد نظرة تأنيب أو سخرية فكان الخوف يمتزج برغبة الهرب، لأنَّ نظرة مثل هذه لا بدَّ ان تحمل الانتقام في أبسط الحالات او أحسنها، وحين يكون مزاج البيك رائقاً، لا بدَّ أن تتبعها كلمات أقرب إلى الشتيمة. كانوا يخافونه ويتحدّثون كثيراً عن القوة الخارقة التي يتصف بها، والقسوة التي تميّزه عن جميع الأغنياء في المنطقة وفي المناطق الأخرى!

كان الصغار يهربون حين يمر بسيارته السوداء، وكانوا يفعلون ذلك أيضاً حين يكون راكباً حصانه متجولاً في المزارع التي يملكها. أمّا الكبار فقد تعوَّدوا ان يقدموا له كل فروض الطاعة بنوع من الاذعان يصل حدود الذل. كانوا يفعلون ذلك بالوقوف اذا مرَّت سيارته، يفعلون ذلك ايضاً اذا مرَّ راكباً حصانه، وبعض الأقوياء والمحظوظين كان يتجرأ على سؤاله عن صحته وعن مزاجه. واذا لم يبدأ الحديث، لم يكن أحد يستطيع ان يفعل ذلك، كانوا يقولون «مزاج البيك معكر»، «البيك يفكر بقضايا كبيرة ولا يريد ان يفسد أحد عليه تفكيره» وكانوا يقولون أشياء أخرى عن مشاغله الكثيرة في العاصمة، عن الخصوم الذين سيسقطون نتيجة موقفهم منه، عن المهمات الكبيرة التي تنتظره!

وجوده في الضيعة يغيّر كل شيء فيها: الوجوه والتصرفات،

وحتى الطقس! ولفرط ما رويت القصص عنه أصبح أقرب إلى الاسطورة. كان يجيء الى الضيعة بين فترة وأخرى، وكان يجيء معه عدد من الأصدقاء، ووراء السور العالي للقصر الكبير لم يكن أحد يعرف ما يجري، لكن الجميع يدرك ان شيئاً خطيراً يجري هناك.

يروي سكان الضيعة ان البيك يملك عدداً كبيراً من أسلحة الصيد ومعدّاته. ويروي هؤلاء انهم لم يروه يستعمل بندقية واحدة مرتين. أمَّا عن مهارته في الصيد فقد أصبحت من الشهرة والمثل بحيث كانوا يقولون: «البيك لا يضرب إلاَّ في اللحم»، وهذا يدل على أنَّه لا يخطىء أبداً!

كانت أيام الصيد تختلف باختلاف المواسم، وكان الأصدقاء الذين يصطحبهم البيك في رحلاته يختلفون باختلاف هذه المواسم. ولا يتذكّر أحد من القرية ان صياداً من الذين جاءوا رجع بصيد أكثر من البيك. أمَّا كيف كان يتصرف بهذا الصيد، فما عدا احتفاظه ببعض الرموز التي كان يحاول ان يؤكّد من خلالها مهارته وقوته، لم يكن ينظر إلى الطرائد وانما يتركها للآخرين، خاصة هؤلاء الذين جاءوا من العاصمة. كان يحرص على ان يحتفظ بالأشياء الغريبة: رؤوس الوعول الكبيرة، جلود الحيوانات القوية والنادرة، وبعض الأحيان تلك الطيور التي لم يصد منها أحد غيره!

الخدم الذين يقيمون في القصر يؤكّدون ان رؤوس الوعول من الكثرة بحيث لا يستطيع أحد عدّها، وهؤلاء الخدم الذين يتكتمون كثيراً في الحديث عمَّا يحويه القصر، كانوا يقولون بعض الكلمات التي تضيف غموضاً إلى الغموض الذي يشمل كل شيء

وراء الأسوار: حياة البيك، عدد بنادق الصيد، عدد رؤوس الوعول أو جلود الحيوانات... وبعض الأشياء الأخرى!

كانت أيام الصيد تغيّر حياة القرية. يترقب الناس عودة الموكب ويحرصون على معرفة ما جاء به وإلى أي مكان ذهب ومتى عاد. حتى ان بعض الناس بلغ بهم حب الاستطلاع ان قاموا في ساعات الفجر الأولى وراقبوا من شبابيك البيوت او من على ظهور الأسطحة الموكب: كيف تحرّك، متى، وكم عدد السّيارات، وكيف ان سيارة البيك كانت في المقدمة تشق الطريق... الخ.

ذات يوم جاءت الى الضيعة سيارة غريبة، سيارة خضراء مثل تلك التي تستعمل عادة في نقل الخضر والفواكه، لكنها جديدة، وقد رُكِّب في وسط المساحة المخصصة للحمولة كرسي فخم. كان الكرسي من تلك التي يستعملها الحلاقون، يدور دورات كاملة، ويبرق في ضوء الشمس، وقد ثُبّت بشكل جيد.

وصلت السيارة وأثارت اهتماماً واسعاً، ولم يستطع أحد ان يقدر كيف ستستعمل هذه السيارة او لماذا. وحتى الخدم الذين أبدوا بعض المعرفة، وكأنّهم على علم سابق بالأمر، لم يلبثوا ان أعلنوا عجزهم عن فهم هذه المشكلة الجديدة، وقالوا لا بدَّ وان البيك يحضّر مفاجأة كبيرة للضيعة وسيكون لها دوي كبير!

بعد يومين وصل البيك ووصلت معه مجموعة من الأصدقاء.

واذا كان الصغار لا يشتركون في رحلات الصيد، ولكن يتحدّثون عنها طويلاً، ويخترعون قصصاً كثيرة لا يملّون من

روايتها مرة بعد أخرى، فقد حدث شيء عجيب في هذه الرحلة:

طلب البيك أن يصطحب معه في السيارة الخضراء اثنين من الصغار للمساعدة، ولا أعرف كيف وقع عليّ الاختيار.

إنَّها المرة الأولى التي أخرج فيها للصيد. صحيح أنَّني رافقت في بعض الرحلات خالي إلى مسافات قريبة وتمتعت كثيراً بهذه الرحلات، وحاولت ان أقنعه ذات مرة بأن يسمح لي بطلقة واحدة، لكن حين أكَّد لي أن كمية البارود والكبسولات التي معه لا تكفي لأكثر من ثلاثة ضربات تنازلت وتوقّعت ان أكبر بسرعة لكي أفعل مثلما يفعل الكبار.

قبل ان تبدأ الرحة نصبوا رشاشاً على السيَّارة الخضراء. كان البيك موجوداً أثناء نصبه، وقد أشرف بنفسه على كل شيء. كان شديد الفخر والتباهي، مع انه لم يتكلم إلاَّ كلمات قليلة. أمَّا الحركة حوله، فرغم النشاط الذي يميّزه، فقد كانت حركة أقرب إلى الرصانة ومليئة بذلك التوقُّع الخائف.

في منتصف الليل تهيأت مجموعة من السيارات والبنادق، وكانت وجهة الموكب الصحراء الغربية. ولأنَّ الرحلة بعيدة ومتعبة، فقد ركب البيك في سيارة جيب، وركب الآخرون سيارات مشابهة، وكانت سيارة شحن كبيرة في مؤخّرة الموكب. أمَّا السيارة الخضراء الجديدة المزهوة فقد كانت الثانية بعد سيارة البيك مباشرة.

بعد مسيرة يوم كامل وصل الموكب الى مضارب أحد شيوخ القبائل، وكان حدثاً كبيراً هزَّ الصحراء بما تخلّله من أهازيج وأفراح وولائم. وفي السيارة الخضراء ذات الحافة العالية بالشبك

الذي يحيط بها نظر البيك الينا نحن الذين نجلس في مؤخرة السيارة وظهورنا الى الشبك. نظر الينا بتلك الطريقة التي لم يغيّرها: كانت نظرته أقرب إلى القسوة او الاختبار، وعندما أكلنا بعض الأشياء التي أعطيت لنا قال لنا مرافق البيك ان علينا أن نحضّر أمشاط الرصاص للبيك، ويجب ان نكون شديدي الانتباه والدقة، ويجب أن نكون سريعين، لأنَّ طبيعة الصيد وحاجة البيك إلى مساعدين جيدين وصغار لا يأخذون إلاَّ مكاناً صغيراً لا يعيق حركة الكرسي الدوَّار جعلته يختارنا، أمَّا الكلمة الأخيرة فقد كانت:

ـ يجب أن لا تخافوا من الرصاص الذي يتطاير حولكم، ولا تخافوا من الصوت أيضاً.

كان البيك على الكرسي. فوقفنا كتلة من اللحم المكتنز. كان ثقيلاً مليئاً، والكرسي يدور بتلك الطريقة المليئة بالفخامة وصوته يئز مع كل حركة.

كل كلمات الأرض لا تصف ما حصل. كان ازيز الرصاص وهو يتطاير يخلق مهرجاناً مدوياً مرعباً في الصحراء الفسيحة. كانت قطعان الغزلان وهي تتراكض بذعر مجنون في كل الاتجاهات تخلق حالة من الرعب. أمَّا البيك الذي كان يصرخ مع كل صلية رشاش فكان أقرب إلى الثمل والجنون. كانت صرخات فرحة مدوية، وبين لحظة وأخرى، بين صلية رشاش وأخرى، نرفع رؤوسنا لكي نتابع هذا المشهد الذي لا يُنسى!

كانت مهمة البيك ان يطلق الرصاص، ان يطلق بغزارة، وكانت الغزلان وهي تتراكض حولنا مفزوعة وقفزاتها ترتفع إلى مسافات تتجاوز السيارة بعض الأحيان، ثم وهي تتساقط، أو

وهي تركض بتلك الطريقة المضحكة، وقد كسرت ارجلها وتناثرت احشاؤها، كانت الغزلان مثل انفجارات مرعبة في هذا الفضاء الفسيح!

حين عدنا الى الضيعة قال أبي: «أنت صغير ولا تحتمل مثل هذا» وقالت أمّي «ان عيناً أصابتني ولا بد ان تفعل شيئاً من اجل طرد هذه العين الشريرة». أمّا ما حصل لي بعد ذلك فلا أتذكره، لكن أمي تروي أنّني متّ وعدت الى الحياة، ولا أحد يعرف كيف حصل ذلك لأنَّ الحمى التي أصابتني يمكن ان تقضي على رجل بالغ.

منذ ذلك اليوم لم أرَ البيك، لأنَّ أبي أرسلني إلى المدينة بعد اعتلال صحتي، وقال:

ـ القرية لا تناسب جسدك النحيل، ثم عليك ان تواصل دراستك عند عمّك في العاصمة.

لم أعد الى القرية، وكانت تنتابني أحزان لا حدَّ لها اذا سمعت كلمة واحدة عن الصيد، اما اذا رأيت غزالاً، حتى لو كان في صورة، فكانت حالة من المرض ثم الحمى تمزّقني.

ذات يوم، بعد سنوات طويلة، علقت جثة البيك في الميدان الكبير. ولا أعرف هل حصل ذلك بسبب الغزلان، أم البشر الذين قتلهم!

عصر اليوم التالي عثرت على سكن متواضع، في ناحية بعيدة، تكاد تكون ضاحية، ودون مناقشات طويلة، وافقت على الشروط التي ارادتها العجوز الجديدة. كانت شروطها بسيطة وواضحة: للغرفة نوعان من الأجرة، الأول ان يكون الساكن الجديد ثرياً ويدفع كامل المبلغ الذي أريد، والثاني، أن يكون الساكن فقيراً ومحتاجاً، وعندها يمكن أن تخفض الأجرة إلى النصف، شرط ان يكون ذلك الساكن مستعداً للقيام بمشوارين يومياً للكلب.

ولكي تخفف من تأثير الصدمة عليّ قالت بلهجة حزينة:

ـ كما ترى: انا امرأة مسنة ولا أقوى على السير فترة طويلة او بالسرعة التي يريدها «كروف».

بعد تردُّد وافقت.

انها تجربة مثيرة ومقلقة للغاية، اذ كيف يمكن اقامة علاقة مع كلب متقدم في السن، يضاف إلى ذلك خاصة انها المرة الأولى بالنسبة لي، أنا الذي لم تكن له علاقة سابقة بالكلاب وأكنّ لها في أعماقي احتقاراً كبيراً؟

استغرق تدريب الكلب وقتاً طويلاً، وتمَّ على عدة مراحل. واذا كان الجنون لا يصيب البشر وحدهم وانما يمتدّ إلى

الحيوانات ايضاً، فإنَّ كروف، وهو اسم الكلب، كان يُصاب بالجنون ايضاً. في حالات كثيرة تركبه حالة من العناد والخشونة لا تفيد معه كل أساليب الإغراء والتهديد، واذا لم يعالج على الفور يمكن أن يرتكب حماقات كثيرة!

في احدى نزهاتنا المشتركة، وفي مرحلة التدريب الأولى، بعد أن أصيب كروف بحالة من الهيجان الشديد، وبعد ان أعيانا تماماً ونحن نحاول تهدئته واسترضاءه صرخت العجوز:

ـ ميرو!

وبشكل مفاجىء أقرب إلى الغموض تغيّر الكلب تماماً، إذ بدأ يتلفت ويتشمم الهواء وينظر في كل الاتجاهات وقد زايله الغضب وأصبح كلباً آخر.

قالت لي العجوز والكلب يسير بجانبنا، دون سلسلة أو قيد:

ـ اذا أُصيب بمثل هذه الحالة، فما عليك إلاَّ أن تنادي باسم ميرو.

ومسَّدت على ظهره وهو يتلفت ويتشمم الهواء وأضافت:

ـ أرجو ألاَّ تتبع هذه الطريقة إلاَّ في حالة الضرورة القصوى، لأنَّها تتعبه!

رنَّت هذه الكلمة السحرية في أذني وحرت كيف أفسّرها، وفي كل المرات التي حاولت ان أستفسر عنها كانت العجوز بطريقة حزينة ومليئة بالغموض تهرب، تغيِّر الموضوع، إلى أن جاء ذلك اليوم، دون سابق انذار. قالت:

ـ ميرو زوجي. زوجي الذي مات قبل سبع سنوات، وكان

يعطف على كروف ويحبه كثيراً. ومن غرائب الصدف انه حين مات كان وحيداً مع كروف، إذ جاءته أزمة قلبية، وأنا خارج البيت. ولما عدت وجدت كل شيء منتهياً. ولم يكن كروف مستعداً لأن يصدّق ان ميرو قد انتهى، ولقد فعل أشياء كثيرة لا يصدّقها الانسان حين جاء القس، وحين جاء المشيعون. أمّا حين أرادوا أخذ ميرو للدفن، فقد سبّب لنا متاعب كثيرة.

قالت هذه الكلمات وصوتها ينخفض ويتهدج بعد كل كلمة، ورأيت بعض الدموع تتساقط على خدّيها المتجعدين. ولما هدأت قليلاً، أضافت:

ـ لا يزال كروف ينتظر عودة ميرو، نعم انه ينتظر، ولا يستطيع ان ينام إلاّ على رائحة ميرو: قطعة من ملابسه، أداة من أدواته، شيء من أشيائه، وحين يجن ويُصاب بحالة من الكآبة ليس له إلاّ دواء واحد: ان أنادي على ميرو.

منذ ذلك اليوم تغيَّر كثير من الأشياء بالنسبة لي وربما ساعد في هذا ان بعض الأمور قد حدثت هذه الفترة بالذات. فليندا مثلما كانت مرتبكة في حبها، ظلَّت غامضة في طريقة هجرها، وحتى الآن لم أعرف سبباً لهذا الموقف الحاسم الشديد القسوة حين أبلغتني بعد أول مرة ننام فيها معاً أنَّها لن تراني بعد ذلك اليوم أبداً. أمَّا المرأة العجوز وابنتها فقد تقابلنا ذات يوم مصادفة في المخزن الكبير، وبلهفة تقدمت لألقي عليهما التحية ولأتحدّث معهما، لكنهما سارتا بكبرياء ونظرتا إليّ باحتقار وكأنّي حشرة مفزعة أتت من عالم آخر.

حين عدت إلى غرفتي ذلك اليوم، وجدت كروف ينتظرني. كان يخرمش الباب وأنا أضع المفتاح بالقفل. أما حين دخلت

فقد هجم عليّ بقوة وحنان. وسمعت العجوز وهي تقف في الزاوية تنظر باستغراب وتقول بصوت بطيء:

ـ هكذا كان يفعل حين كان ينتظر ميرو.

ولما سمع كروف اسم ميرو أصابته حالة من الفرح فتركني وذهب نحو الباب، ووقف هناك ينتظر!

كانت القصص وهي تتوالى تثير الدهشة وتبعث على التساؤل، لأنَّها لم تُروَ كما تروى قصص مثلها في مكان آخر وفي وقت آخر، خاصة وان الجثة التي كانت مثل طوفان يملأ الغرفة، خلقت خوفاً سيطر على الجميع، وإن كان بأشكال مختلفة. وهذا الخوف أصبح متحدياً إلى درجة لم يمكِّن أحداً، في البداية، من الخروج أو الحركة. لكن احدى القصص التي رُويت هزَّت المختار، وبطريقة لا شعورية أقرب إلى ما يفعله السائرون في نومهم او المجانين، نهض بشكل مفاجىء، وبعصبية ظاهرة رفع الغطاء عن وجه عساف، وسأل بتحدٍّ:

ـ أنت الذي عرفت الحيوانات والطيور، وأنت الذي عشت للطيبة، لكن لم تعش فيها إلاَّ لتنام ساعات ثم تتركها الى البرية، هل يمكن أن يكون الانسان بهذه الوحشية، ويكون الطير أو الحيوان أحسن منه؟

قال المختار هذه الكلمات بوضوح، وان خالطه الحزن، وانتظر، وقد أدار رأسه قليلاً، كأنَّه يقرب أذنه من فم عساف، ليسمع الجواب.

وحين خيَّم صمت طويل، التفت المختار ووضع يده على كتفه وهزَّه هزاً حنوناً رقيقاً كأنَّه يوقظه من النوم:

ـ عساف... عساف هل سمعت ما أقول لك؟

وتوالت كلمات الرجال قاسية مؤنبة:

ـ لا تكن مجنوناً أيُّها الرجل، غَطِّهِ، وتعالَ إلى هنا.

ـ أنت المختار، ويجب أن تكون أعقل الجميع!

ـ لقد مات عساف يا رجل، لا تكابر، ولا تطلب شيئاً مستحيلاً!

وبالعصبية نفسها التي بدا بها المختار، تابع وكأنَّه لم يسمع كلمة من الكلمات التي قيلت:

ـ عساف... عساف لماذا لا تجيب؟

كان جو الغرفة جواً ثقيلاً تربض فيه رائحة الموت، واذا كان الناس قادرين على التصرُّف في أوقات كثيرة بتعقل وحكمة، فإنَّهم في لحظات مثل هذه يفقدون هذه القدرة، ويتحولون الى قطيع يمكن ان يقودهم مجنون. حتى الكلمات القاسية، حتى القبضات القوية وهي تمسك المختار من تحت إبطيه لترفعه وتعيده الى حيث كان، لا تمنعه من أن يواصل هذه اللعبة المدمرة.

أوقفوه بقوة. وقف لحظة ثم سقط، حملوه الى مكانه، لكن ما كاد يستقر لحظة حتى نهض بقوة أكبر وهجم من جديد على عساف، وحين صرخ به أحد المسنِّين:

إذا ظللت بهذا الشكل فسوف نتركك ونمشي، وأنت تعرف معنى أن يبقى الانسان وحيداً مع ميت: لا بدَّ أن يُجنَّ أو أن يموت مثله!

ومثلما تهبط النيازك من السماء، فجأة التفت المختار، بعد أن أبعد الأيدي المحيطة، وزمَّ اصابعه وهزَّ يده دلالة ان ينتظروا،



ولما خيّم الصمت من جديد، قال بطريقة هادئة موزونة:

ـ يجب ان يسمع عساف كل كلمة تقولونها، لأنّه بهذه الطريقة وحدها يتأكّد اذا كان أهل الطيبة قد أصبحوا بشراً ويستحقون الحياة، أم أنهم لا يزالون حمقى كما كانوا من قبل!

وقبل أن يسألوه، ولكي تستقر الكلمات في عقولهم قال بحدّة:

ـ يجب ان نضع وراء ظهره مساند، ونجعله ينظر إلينا، لكي يعرف مَن يقول الحقيقة ومَن يكذب.

قال أحد المسنّين وقد ملَّ هذا الالحاح من الجنون المفاجىء الذي ركب المختار:

ـ للموتى حرمتهم، يا رجل، ويجب أن نرعى هذه الحرمة حتى النهاية، أمّا ان نمثل بهم، أن نمازحهم، أن نلعب معهم كالأطفال، فإنَّ هذا يسيء للموتى ويخالف الدين.

وبطريقة تداخل فيها المكر والذكاء والقسوة، وافقوا على حل وسط: أن يعود المختار الى حيث كان، وبالمقابل ان يرفعوا الغطاء عن وجه عساف. وقال أحد الضيوف، وقد شعر ان معدته تكاد تخرج من حلقه، وامتلأ صوته بحشرجة:

ـ سامحونا يا جماعة، لقد كنا نحن السبب في كل ما جرى، ولولا هذه الرحلة المشؤومة لما حصل الذي حصل.

قال أحد المسنّين ينهي الخلاف ويخلق جواً جديداً:

ـ الأعمار، يا ولدي، بيد الله، فإذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون!

قال رجل آخر:

ـ عساف كان يريد أن يموت بهذه الطريقة، كان يردّد أمام الجميع، أريد أن أموت في البرية، في الصيد، كلبي معي وبندقيتي على كتفي أو بيدي!

ورغم ان بعض المسنّين وأذكياء الطيبة ساقوا الحديث بعيداً، إلاّ أنّه كان يعود، دون رغبة او شعور من أحد، إلى الصيد، وإلى الطيور والحيوانات، وفي كل مرة يُذكر شيء عن الكلاب او الغزلان كان المختار يلتفت إلى عساف، ويقول بصوت جارح:

ـ أنتَ الذي كنت تقول ذلك. اسمع، إنّهم الآن، بعد أن تركت الدنيا، يقولون الكلام نفسه.

ويتوقف قليلاً، يمتلىء وجهه بابتسامة ساخرة ويتابع:

ـ كانوا يقولون عساف مجنون، عساف صايع، عساف لا يحب العمل. والآن يردّدون الكلمات نفسها التي كنت تقولها!

فإذا سمع أحداً ينهره أو يطلب منه الصمت، يهز رأسه دلالة الموافقة والاستسلام ويقول:

ـ الآن يمكن أن تقولوا كل شيء، تفضّلوا!

إنّها ليلة عجيبة من ليالي الطيبة. واذا كان أهل الطيبة قد تعوّدوا على التسامح فإنّ فيهم قسوة تطفو فجأة في دمائهم وتجعلهم أميل إلى الغضب. ولو ان احداً فعل تلك الليلة ما فعله المختار لما انتهت الأمور بسلام، لكن الفاجعة التي حلّت بالمختار، بفقد الابن الوحيد الذي بقي له، في الحرب الأخيرة، ثم بذلك البحث المضني بين الطيبة والمدينة ليتأكد من حياته او موته، والضباط في المدينة لا يقولون له كلمة تريحه، وانما الجواب الذي ظلّوا يردّدونه دون تعب ودون تغيير: «مفقود» ثم

وفاة زوجته المفاجىء اثناء احدى رحلات بحثه، والتي كانت تستمر أياماً، وعودته إلى الطيبة ليجد البيت خالياً وليقول له الناس بطريقة غامضة أوّل الأمر، ثم جارحة: «لقد أخذ الله وديعته» ـ ان هذه الفاجعة التي نزلت بالمختار جعلته في كثير من الأحيان بين الصحو والجنون. وجعلت تصرفاته تتسم بذلك المقدار الكبير من الغرابة. لذلك لم يفاجأ أهل الطيبة من تصرفاته تلك الليلة، لم يقدروا أن تصل إلى هذا الحد من القسوة والتحدّي، لأنَّ الكلمة التي ظلَّ يردّدها دون انقطاع، طوال الفترة السابقة كلها: «لا أصدّق. لا يمكن ان يحدث كل هذا دفعة واحدة».

والطيبة التي تعرف كيف تقسو وكيف تتحمل القسوة، تعرف أيضاً كيف تسرف في الحنان ولا تتخلّى عن أبنائها. واذا وجد من همس بأنَّ المختار، بوضعه الصحي الجديد، لم يعد قادراً على أن يقوم بواجبه، وعلى الجهة الشرقية في الضيعة، ان تبحث عن مختار آخر، فإنَّ هذا الهمس قُوبل بالازدراء والرفض ولم يؤد إلى أية نتيجة، لأنَّ الكلمة الوحيدة التي كانت تردّد دون انقطاع: الطيبة لها وجه واحد ليس لها وجهان، كما انها لن تتخلى عن أبنائها حين يسقطون، أو حين يضيعون. واذا كان الناس في الضيع والقرى الأخرى يفعلون ذلك فإنَّ الطيبة لم تتعلمه ولا تريد أن تتعلمه!

تلك القصص اذا كانت قد أثّرت في المختار بشكل ظاهر، فإنّها لم تترك أحداً إلاّ وحرَّكت في أعماقه موجة عاتية من التساؤلات والحزن، وجعلت الأمور تبدو، في لحظات كثيرة، أقرب إلى الومض الممزق: ماذا تعني الحياة وماذا يعني الموت؟ ولماذا تنتهي حياة المخلوقات بهذه الطريقة العاتية؟ وماذا لو

أصبح الانسان أكثر صدقاً وبساطة وتخلّى عن كثير من الأشياء التي تحوّله إلى مخلوق لا يعرف سوى جمع الأشياء ثم تدميرها؟ لماذا تصمت المدينة أيام المحل الذي يتأكل الأحشاء وتتذكر أيام لا يفيد التذكُّر؟

أسئلة مثل هذه وعشرات غيرها مرَّت في أذهان البشر المحصورين في تلك الغرفة. صحيح انها غرفة واسعة، تدل على أنَّ المختار كان يملك شيئاً ذات يوم، لكن الاهمال الذي بدا في الكثير من المظاهر، ثم الغبار الذي تعشّق الغرفة جيداً، حتى أصبح جزءاً منها، والفوضى الظاهرة في كل شيء، مع قليل من القذارة الجديدة، ان هذه الأمور كلها تجعل النفس ضيقاً، وتبعث شعوراً قوياً بالانتهاء، فإذا أضيف اليها وجود عساف، بوجهه الجامد المتقلص، وعينيه المطفأتين، وابتسامته الرخوة الساخرة، فحينئذ لا يمكن لأحد أن يشعر بالأمن، حتى أشجع الرجال وأكثرهم صلابة، ولذلك حين اقترح أحد المسنّين فتح النافذة القبلية، صرخ المختار بحدة:

ـ اتركوا كل شيء كما هو.

هل هي الذكرى او الرغبة بالتحدّي؟ هل هو الاصرار على السير في الطريق إلى نهايته حتى لو كان الموت؟

يمكن ان تفسر الأمور على كل الوجوه، ويمكن ان يكون لكل وجه حقيقته الخاصة به، ويكون صحيحاً. فما دامت ارادة البشر الموجودين في تلك الغرفة قد سقطت في دوامة الحزن، ولم يعد أحد قادراً على ان يتحدّى المختار أو يرفض له طلباً، فإنَّ أقصى ما يستطاع في مثل تلك الحالات، الاحتيال عليه ومعاملته كطفل.

ومع القصص والذكريات تنفجر الآن الأحزان والمشاعر. وظلّت كلمات المختار وتعليقاته، والتي بدت في لحظات كثيرة، أقرب إلى البلاهة، تطغى على كل شيء وتعطيه الطابع الذي يريد، فحين يكون الغزال الضحية يصرخ بذعر:

ـ هذا ما قاله عساف. وعساف لم يصد غزالاً إلاّ مرة واحدة في حياته. ثم توقّف. ألم تسمعوا عساف كيف كان يتحدّث عن الغزلان؟ كان دائماً يردّد قولاً لا أنساه أبداً: الغزلان تبكي، تبكي دائماً وهي تموت، أياً كانت الطريقة التي تموت بها. ولذلك لم يذهب عساف إلى صيد الغزلان مثلما كان يفعل الشباب الأغرار وبعض القساة الذين لا قلوب لهم.

وإذا جاء ذكر الكلاب او أية حيوانات أخرى، كان المختار يقلق، ويهز رأسه هزات طويلة مستمرة مثل بندول الساعة. فإذا وجد ما يقوله لا يتردّد لحظة واحدة.

هكذا كانت أطول ليلة في تاريخ الطيبة. واذا كان الشباب، بدوافع غامضة متداخلة، بدوا أقل اعتراضاً وضيقاً بتصرفات المختار، فإنَّ المسنّين ما كادوا يدارون الأمر بشكل او بآخر حتى انبثق الفجر، وعندها قال العم زكو الذي بنى معظم بيوت الطيبة:

ـ أتعرفون...؟

قالها بصوت شديد النبرات، ليبدأ رحلة جديدة، وحين تطلعت اليه العيون، تابع باللهجة نفسها:

ـ اكرام الميت بدفنه، ويجب ان يُدفن عساف مع أول النهار.

وبحركة فيها الكثير من المهارة أشار العم زكو إلى مجموعة

من الشباب ان ينهضوا ويذهبوا معه لإعداد القبر. وحين قام، قال كأنّه يصدر بكلمات:

- جهّزوه بسرعة، وحين ينتهي القبر أرسل إليكم لتأتوا به!

قال المختار بطريقة لا تقبل المناقشة أبداً:

ـ عساف يُدفن هكذا!

ولما بدأ المسنّون يحاورونه، هزَّ رأسه ويده اليسرى دلالة أنَّه لن يسمع ولن يفهم ما سوف يُقال، وحين ألحُّوا صرخ:

ـ هكذا قال لي الجنود والضباط حين سألتهم عن ابني وعن الجنود الآخرين الذين يقتلون في المعركة. إنَّهم يدفنونهم بثيابهم، لأنَّ هذه الثياب أقدس من جميع خام المدينة.

وبطريقة هازئة أضاف:

ـ ثم أنتم تعرفون، الطيبة لا تجد من الخام ما يستر الأحياء فكيف تستطيع في سنة مثل هذه أن تستر الموتى؟

وعاد إلى لهجة الحسم:

ـ عساف لم يمت موتاً طبيعياً، مات من أجل الطيبة، مات شهيداً. وما دام في حياته رضي أن يكون بهذا الشكل، فإنَّه لن يرضى أن يغيّر شكله في اللحظة الأخيرة!

وبتسليم أقرب إلى المرارة، ولأنَّ الأمر أصبح اكثر تعقيداً ممَّا تصور الكثيرون، فقد رضخوا لما أراده المختار. كان لدى الجميع شعور قوي بضرورة إنهاء هذه المشكلة كيفما كانت النهاية، لأنَّ مجرد بقائها سيؤدِّي إلى تعقيدات لا يمكن أن يحلها العقلاء أو المجانين!

وإذا كانت تلك الليلة من الليالي العجيبة في حياة الطيبة، فإنَّ ما تلاها لا يقل عجباً عن ذلك.

فما كادت الشمس ترتفع ذراعاً، وبعد أن أرسل العم زكو رسلاً عديدين، وأكَّد هؤلاء ان القبر أصبح جاهزاً، وان الأمر لا يحتمل التأخير، ظلَّ المختار يرفض بإصرار يقرب حدّ الاحتقار ويؤكّد أنَّ الوقت ليس مناسباً. بعد ذلك الالحاح جاء العم زكو بنفسه، وبطريقة تمتزج فيها العصبية بالمكر ارتفع صوته مهدداً رافضاً أن يتدخل أحد في هذا الأمر الذي لا يعرفه غيره، صرخ المختار وكأنَّه يتأثر من كل شيء:

ـ اسمعوا يا أهل الطيبة: عساف ليس لصاً ولا قاطع طريق لكي تتستروا عليه وتدفنوه في الظلام. لقد مات من أجلكم، وما دام الأمر حصل بهذا الشكل، ورأيت ذلك بعيني، فيجب أن يُدفن عندما ترتفع الشمس في السماء، وعندما يعرف أهل الطيبة!

وحين أكَّد الجميع ان الطيبة تعرف كل شيء، وانها تنتظر اللحظة التي يخرج فيها جثمان عساف لكي يشترك الجميع في تشييعه، قال المختار:

ـ اتركوه يراكم كلكم، إنَّه يحب كل واحد منكم، ويريد أن يرى ويسمع كل شيء بنفسه!

في وقت ما، ولا يعرف اذا كان الوقت الذي أراده المختار أو الذي أراده الآخرون، حُمل عساف. خرج من المضافة محمولاً على نعش وملفوفاً بقماش أسود. ويؤكّد جميع مَن رأى المشهد أن عساف لم يكن محمولاً وإنَّما كان يطير. كان طائراً

ينتقل من مكان لآخر أسرع مما كان يفعل الطير. لم يبق أحد من الطيبة إلاَّ وخرج لتشييع عساف، ولم يبقَ أحد إلاَّ وحاول ان يفعل شيئاً. الذين لم يستطيعوا المشاركة في حمله، ركضوا الى جانب النعش، والذين لم يستطيعوا الأمرين معاً، فقد حاولوا ان يفعلوا شيئاً آخر. والطيبة التي خزنت منذ وقت بعيد أسلحة كثيرة، وكان الكبار يعتزون وهم يتحدثون عن هذه الأسلحة، كيف حصلوا عليها وكم دفعوا ثمناً لها وأية مزايا رائعة لها عندما حاربوا بها، فإنَّ معظم هذه الأسلحة قد خرج دون اتفاق سابق، ودون ترتيب مقصود، والذين أحسُّوا بخطئهم حين جاءوا دون سلاح ما لبثوا أن بعثوا مَن أحضر لهم السلاح. بعثوا بأبنائهم، أو بأقربائهم. وخلال فترة قصيرة بدت الطيبة غريبة المنظر وأشبه ما تكون في لحظة من لحظات الحياة الكبرى، اللحظة التي واجهت فيها العدوّ قبل عشر سنين، ومنعته أن يتقدّم، بعد أن فَقَدَ الكثير من جنوده.

ومن بيت المختار حتى المقبرة، كانت أصوات عمياء وأيدٍ عمياء هي التي تحرّك هذا الموكب الذي لم ترَ الطيبة مثيلاً له. والمختار الذي كان يحتفظ ببيته بثلاث قطع من السلاح تخلّى عنها كلها وأخذ بندقية عساف القديمة معه. كان وهو يملأها بين لحظة وأخرى، كان وهو يطلق بين لحظة وأخرى، كأنّه في عرس. كانت أصوات الطلقات تملأ الفضاء، وحتى الذين لم يملكوا من الطلقات إلاَّ القليل، وحاولوا الاحتفاظ بقسم منها لأوقات أخرى، فقد عوضوا عن ذلك كله بالأصوات المفاجئة العمياء الحادة التي يطلقونها. كانوا يصرخون صرخات لها وقع التحدّي، وان كانت دون معنى أغلب الأحيان، أو متداخلة

الجرس بحيث انها تفهم وترافق الصرخات الأيدي وهي تنقل النعش بسرعة وتدفعه بقوة، تريده ان يسبح في الفضاء، أن يطير.

رغم السرعة والمهارة، فإنَّ الموكب تأخّر كثيراً، ليصل إلى التل الجنوبي، لأنَّه مرَّ في أحياء لم يقدر أحد أن يمرّ فيها، ولأنَّ عقولاً مجنونة دفعته في تلك المسالك، وكأنَّها تريده ان يرى كل شيء في الطيبة قبل أن يغادرها، قبل ان يغيب تحت التراب. وخلال ساعة أو أكثر قليلاً، ومع الزغاريد وطلقات الرصاص والركض المجنون، ولا يعرف أية أشياء أخرى، وصل عساف إلى حيث يجب أن يُدفن.

وهناك، في بداية المقبرة على السفح الجنوبي، كانت جموع كثيرة تنتظر. لا يدري أحد كيف تجمّعت هذه الجموع ومن أين أتت. كانت من القرى المجاورة، وحتى من القرى البعيدة، وقد جاء هؤلاء بوسائط نقل عجيبة، بالباصات الكبيرة، بالشاحنات، حتى أطفال القرى المجاورة جاءوا على الدواب او على الدراجات. واذا كانت هذه الجموع قد انتظرت عند المقبرة، فلأنَّ احداً من أهل الطيبة لم يعرف كيف تسير الجنازة أو إلى أين ذهبت، وقد اقترح أحد وجوه القرى القريبة ان يكون اللقاء عند المقبرة. وبهذه الطريقة بدأت أفواج البشر والآليات والدواب، وكأنَّ يداً سحرية هائلة الحجم جمعت كل هؤلاء ثم بعثرتهم بهذا الشكل.

وما كادت الجنازة تهدأ وتبدأ صعود السفح، حتى انفجر الصوت فجأة: لا اله إلاَّ الله... لا اله إلاَّ الله. وبسرعة انفجار الصوت نفسه كانت تلك الركضة السريعة الأقرب إلى الرقص،

وهي تتجه للمشاركة في حمل النعش. لقد أدّى الأمر إلى ما يشبه الاضطراب والغموض، اذ ما كادت الأيدي الجديدة تتلقى عساف، ودون تقدير سابق او اعتبار للوزن وطريقة الحمل، بدأ النعش يموج في حركة نصف دائرية سريعة. ولقد قال الكثيرون، انهم شاهدوا النعش يطير، ولم تكن أية يد تحمله أو تمسه. ورغم ان المسافة لا تتجاوز المائتي متر بين بداية السفح والقبر المفتوح فقد احتمل وصول عساف وقتاً طويلاً.

وليس رجال الطيبة وحدهم يتصفون بذلك المقدار الكبير من الجنون والتسامح والحنان والقسوة والقدرة على التحدّي والغضب، ان نساء الطيبة كذلك.

وحتى وقت متأخر، لا يدري أحد كيف حصل الأمر؟

ما كاد عساف يصل المقبرة، حتى كانت نساء الطيبة قد تهيأن لاستقبال يليق بهذا الرجل. ودون ان تبدو أية مظاهر خاصة او مختلفة، وما كاد النعش يقترب، ثم يُوضع على الأرض، تمهيداً للحده، حتى تجمّعت النسوة على شكل دائرة، وبطريقة تختلط فيها كل مظاهر الحزن والفرح واللذة والجنون والغضب، وبحركات ادائية لا يتقنها إلاّ مَن احترفها لفرط ما تعوّد عليها، بدأت الرقصة منتظمة موزونة، وكانت الصرخات ترافقها وتعطيها انتظاماً أدق ووزناً أوضح. ومع الحركات والصرخات، كان الرجال يمارسون عملهم بنوع من الاتزان المفرط. وكان العم زكو سلطاناً في تلك اللحظات، فحين يطلب رفع عساف من التابوت، ومساعدته لإنزاله الى القبر، كان يفعل ذلك باتقان شديد، والرجال الذين يقومون بما يُطلب منهم، كانت تبدو حركتهم

مضطربة بعض الشيء، لكن لا تلبث ان تستقيم وتتوازن. ثم حين وُضع عساف في القبر، بدأت اشارات العم زكو واضحة حين طلب مناولة الحجارة الرقيقة المستطيلة التي تستعمل غطاء، ثم تلك الحجارة الصغيرة التي تسد الثقوب، ثم التأكُّد من الزوايا والأطراف. حتى اذا انتهى من اداء هذه الأعمال بمهارة، وكان الرجال يستجيبون بخفة وقد ملأهم الصمت، كانت حلقة النساء تزداد عنفاً وسرعة، وبلغت في احدى اللحظات مرحلة من الانفعال إلى درجة ان بعض النساء رمى الأغطية عن الرؤوس، وأخريات أمسكن بأغطية خاصة وبدأن نوعاً من الرقص الهستيري، وبين فترة وأخرى ينفجر صوت يعطي لهذه الحركات وقعاً جديداً، ويجعلها اكثر اشتعالاً.

كل ذلك كان يجري دون اعتراض من الرجال او تدخّل، وهذا الأمر الذي لم تفعله الطيبة إلاّ قبل عشر سنوات، حين وقع بعض الرجال ضحايا القوات الأجنبية، وجاءوا بهم إلى الطيبة لكي يدفنوا هنا، إذا كان هذا قد جرى لأولئك الرجال في وقت بعيد، فالطيبة التي اكتسبت جزءاً من عادات البدو، كانت تكره ان تعبّر عن حزنها بهذه الطريقة، لكن حين يبلغ الحزن درجة تفوق احتمال الناس وقدرتهم، فإنّها تفعل كل ما تريد. والطيبة التي كانت ترى كثيراً من الفجاجة، قد تصل حداً لا ترضاه، تعوّدت ان تمنع النساء من الخروج الى المقابر او المشاركة في عمليات الدفن، وكانت تريد ان تنفض يدها بأسرع الطرق من «الوديعة التي اختارها الله». لكن الطيبة ذاتها لا تستطيع ان تفعل كل شيء نتيجة رغبة بعض الناس الموزونين المتعلمين. انها في أحيان كثيرة تفعل ما تعتبره ضرورياً، وما تعتبره وحده الذي ينقذها مما

هو أدهى وأصعب. ولذلك فحين رأى الرجال النسوة، مثل كتلة سوداء في منتصف السفح فقد داخلهم شعور قوي بالحزن، وأحسّوا ان عساف كان أكثر من مجرد رجل من الرجال الذين كثيراً ما وارت الطيبة أجسادهم تحت الأرض. بدا لهم كبيراً، مهماً، وبدا ان أحداً لا يصدق ولا يطيق أن يذهب بهذه السرعة وبهذه الطريقة، ولذلك ومع كل خطوة، وحتى حفنات التراب الأخيرة، والتي شارك في إلقائها جميع الموجودين، بمَن فيهم الأطفال الصغار، عدا تلك المجموعة الصغيرة من النسوة اللواتي ظلَّت في حالة من الهياج والدوران، ولم يفطنّ إلى ما كان يجري حولهن، حتى حفنات التراب الأخيرة كانت مثل سكاكين صغيرة تنغرز في القلب. وملأ الصمت المكان. أمَّا الخطوات الصغيرة المثقلة، وهي تنزلق عن السفح، فقد بدت وهي تنتزع نفسها من الأرض بقوة، وكأنَّها لا تقوى على فعل أي شيء. وحين نزل الرجال، وأصبحوا قريبين من الباصات والشاحنات، لم يكن يرى في منتصف السفح سوى العم زكو وإلى جانبه أحد الرعاة يمسك شبابته بقوة، وكانت ملامحه شديدة الصلابة والخشونة، ونظراته بعيدة، وكأنَّه يستعيد صوتاً معيناً من جبال الطيبة وأوديتها. ومن الصحراء ايضاً، كان الراعي ينتظر، ليبدأ شيئاً ما، وحول الاثنين بعض الصبية، ومجموعة من النساء. كانت المجموعة تصغر وتتلاشى دقيقة بعد أخرى، نتيجة الاعياء والسقوط على الأرض، وكانت حركات الجميع مليئة بالعصبية، وكأنَّها انتقام من كل شيء، وكانت النساء واحدة بعد أخرى، نتيجة الارهاق الذي وصل حد السقوط، تدفن وجهها في التراب وتغرق في موجة عاتية من البكاء والصراخ، وبدا ان الطيبة، رجالاً ونساء، تبكي

نفسها بشكل لم تفعله من قبل، لكن الى جانب البكاء كان الغضب.

اذ ما كاد المختار يقترح، وكان شديد الاتزان، ويبدو أنَّ حالة عالية من الصفاء سيطرت عليه في تلك اللحظة، أن يذهب عدد من الناس مباشرة من المقبرة إلى المدينة، لكي يبحث موضوع السدّ للمرة الأخيرة، ما كاد المختار ينتهي من كلامه حتى كانت الاستجابة أكبر وأكثر مما تصور أي انسان، ولم يقتصر الأمر على أهل الطيبة وحدهم، اذ أبدى عدد كبير من رجال القرى المجاورة رغبتهم في أن يذهبوا معهم إلى المدينة.

خلال دقائق، وبعد ان أعاد الرجال الأسلحة، مع أبنائهم وأقاربهم إلى البيوت، وقالوا لهم بوضوح: «انتبهوا وأنتم تحملونها، ثم يجب أن تنظّف، لأننا قد نحتاج إليها في وقت قريب»... بعد ذلك بدأت السيارات، الواحدة بعد الأخرى، بأشكالها الكبيرة والصغيرة، القديمة المتعبة والتي لا تزال تتحرك دون دفع او انتظار، تأخذ الطريق المتجه إلى المدينة، وبدت مثل شريط شديد النتوء وغريب الملامح، وكان الرجال في أغلب السيارات صامتين. أمَّا حين تجاوزوا الطيبة، وقبل ان يتركوا الطريق الترابي الصعب ليدخلوا في الطريق الاسفلتي العريض، فقد التفت أكثر الناس الى المكان الذي أشار إليه أهل الطيبة، وهم يقولون: «من هنا الطريق الذي يوصل إلى المكان الذي يجب ان يُبنى فيه السد». أمَّا المختار، الذي ظلَّ صامتاً طوال الوقت، فقد سمعه الذي يجلس إلى جانبه يقول:

ـ لن أعود إلى الطيبة مرة أخرى إلاَّ لأحمل بندقية وأبقى في الجبل، ومن هناك ومع الآخرين سوف نعمل شيئاً كثيراً غير

الصيد. أمّا اذا وافقوا على بناء السد فسوف أعود على ظهر بلدوزر لكي يبدأ العمل، ولكي تبدأ الطيبة تعرف معنى الحياة بدل هذا الموت الذي تعيشه كل يوم.

وخيّم الصمت من جديد، ولم يكن يسمع سوى دوي السيارات على الطريق الأسفلتي وهي تتجه إلى المدينة.

•

عبد الرحمن منيف
(1933 ـ 2004)

وُلِد في عمان لعائلة من نجد وسط العربية السعودية. درس في عمان، بغداد والقاهرة.

بعد حصوله على الليسانس في الحقوق تابع دراسته العليا في جامعة بلغراد (يوغسلافيا) حيث حاز على درجة الدكتوراه في اقتصاديات النفط «الأسعار والتسويق».

سُحِبت جنسيته السعودية عام 1963.

عمل في مجال النفط في سوريا لعام 1973 حيث انتقل للعمل بالصحافة في بيروت «مجلة البلاغ» ومن ثم غادرها إلى بغداد ليصدر مجلة تعنى باقتصاديات النفط وهي «النفط والتنمية» التي كان لها صدى كبير في تلك الفترة.

انتقل في أواخر 1981 إلى فرنسا متفرغاً لكتابة الرواية بشكل كامل فكانت «مدن الملح» بأجزائها الأولى من أهم نتاجاته، وهي الرواية التي تُرجمت إلى الإنكليزية والألمانية والنروجية والإسبانية والتركية، والتي أكمل بقية أجزائها في دمشق التي استقر بها من أوائل 1987 حيث ساهم في إصدار الكتاب الفصلي «قضايا وشهادات» بالاشتراك مع د. فيصل درّاج والمسرحي السوري المعروف سعد اللّه ونوس.

عاش متنقلاً بين بيروت ودمشق حتى وفاته في 24 كانون الثاني 2004.

حصل منيف على جائزة الرواية العربية في المؤتمر الأوّل للرواية الذي نظّمه المجلس الأعلى للثقافة في مصر، إضافة إلى عدد من الجوائز الأدبية الأخرى. وقد تُرجمت معظم كتبه إلى لغات متعددة (15 لغة).

مؤلفاته

روايات

الأشجار واغتيال مرزوق، دار العودة، بيروت 1973.
قصّة حبّ مجوسيّة، دار العودة، بيروت 1974.
شرق المتوسّط، دار الطليعة، بيروت 1975.
حين تركنا الجسر، دار العودة، بيروت 1976.
النهايات، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1977.
سباق المسافات الطويلة، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1979.
عالم بلا خرائط، رواية مشتركة: عبد الرحمن منيف وجبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1982.
خماسية مدن الملح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1981 ـ 1989.
الآن... هنا، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي، بيروت 1991.
سيرة مدينة، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1994، وقد صدرت في طبعة خاصة عن المركز الثقافي العربي، وتضمنت رسوماً وتخطيطات لعبد الرحمن منيف، تدور حول «سيرة مدينة».
ثلاثية أرض السواد، المركز الثقافي العربي والمؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1999.
أم النذور، المركز الثقافي العربي والمؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 2005.
أسماء مستعارة (قصص قصيرة)، المركز الثقافي العربي والمؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 2006.

الباب المفتوح (قصص قصيرة)، المركز الثقافي العربي والمؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 2006.

دراسات أدبية وسياسية

الكاتب والمنفى، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1991.
الديمقراطية أولاً، الديمقراطية دائماً، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1995.
بين الثقافة والسياسة، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء 1999.
رحلة ضوء، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء 2001.
ذاكرة للمستقبل، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء 2001.
لوحة الغياب، النشر والمركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء 2001.
عروة الزمان الباهي، بيسان للنشر والمركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء 1997.
العراق: هوامش من التاريخ والمقاومة، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء 2003.
إعادة رسم الخرائط، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء 2007.
مبدأ المشاركة، وتأميم البترول العربي، ، دار العودة، بيروت 1973.
تأميم البترول العربي، بغداد 1976.

دراسات فنية

مروان قصّاب باشي: رحلة الحياة والفنّ، نشر خاص، دمشق 1996.
جبر علوان: موسيقا الألوان، دار المدى، دمشق 2000.

النهايات

إنها مرثية عميقة الأنغام للجنّة التي بقيت حاضرة في أذهان أبناء القرية، إذ راحت أرضها تشحّ، ومياهها تقلّ، وهم يتشبّثون بهذه الحبيبة التي لا يذكرونها إلّا طرية، ندية، فاغمة بشذا الفواكه وعطر الورود، وضاجّة بأنغام المغنّين والراقصين. والروائي، باختياره هذا الاسم الجميل لقريته، الطيبة، لا شك يذكّرنا ضمناً بأنّ في سوريا وفلسطين والأردن قرى كثيرة تحمل هذا الاسم . ولو تُرك أمر تسميات القرى لأهلها، لربما سمّى أهل كل قرية قريتهم بالطيبة: إن الطيبة تجمع بين معنى طيب المذاق والهواء والطبع، وبين معنى البقاء. فالطيبة هي أيضاً العائشة، الحية.

جبرا ابراهيم جبرا

رواية النهايات التي أراها رواية البادية بامتياز، شهادة بدوي يعرف الصحراء والمواسم والخصب والمطر والقحط والجفاف والحيوان والنبات والطير، يتشمّم رائحة الغيم ويتعرّف على نذر العاصفة، يعيش مع أهل قريته - وهي دائماً ذات القرية التي تقع على حافة الصحراء - متمثّلاً أنماطها الثقافية وأصفى قيمها.

علي الراعي



ISBN 978-9938-886-33-7

دار التنوير للنشر والتوزيع

المؤسسة العربية للدراسات والنشر